33

الحرب الأهلية في لبنان والشرق الأوسط

أثناء المفاوضات من أجل الاتفاقية المرحلية في أيلول 1975، وعد الرئيس فورد رئيس وزراء إسرائيل إسحاق رابين بأن الولايات المتحدة لن تطلب من إسرائيل القيام بانسحاب كبير آخر إلا بعد التنصيب الرئاسي في ك2 1977. وكان الرئيس المصري أنور السادات قد وافق على هذه التسوية قبل بضعة أسابيع عندما قابل فورد في سالزبورغ في حزيران 1975. فبعد سنتين من الحرب والتوترات التي أحاطت بالمفاوضات لعقد ثلاث اتفاقيات، كانت أطراف الشرق الأوسط، وكذلك الولايات المتحدة بحاجة إلى فترة استراحة لمتابعة المراحل القادمة. ما أسرع أن تسافر على طريق السلام وما أبعده، وفي أي سلك سوف تُستأنف عملية السلام، بعد انتهاء فترة الاستراحة هذه.

ولكن وسط انفعالات الشرق الأوسط ليس من السهل تحقيق الهدوء والسكينة. ولم يكن فورد ورابين والسادات في وضع يمكّنهم من تحقيق ذلك. وقد استُبعدت كل من سورية و «منظمة التحرير الفلسطينية» كما حدث في اتفاق سيناء الثاني المرحلي، ولم يكن لهما مصلحة في التأجيل قبل جولة ثانية من الدبلوماسية تستبعدهما ثانية. جميع الأطراف تريد أن تحقق أولوياتها، لأن التأخير لن يكون في صالحها. ومن دواعي التناقض أن الدبلوماسية كانت بحاجة إلى فترة انتظار معقدة مثل عملية السلام نفسها.

وفجأة حصل انفجار طويل الإعداد ومع هذا ـ كما يحدث غالباً في الشرق الأوسط. لم يكن متوقعاً قط في حجمه ومدى عنفه. وأخمد الضغط من أجل استئناف عملية السلام. فمنذ ربيع عام 1975 كان لبنان غارقاً في العنف الطائفي والديني حول توزيع السلطة بين الطائفيين التاريخيتين المسيحية والإسلامية الذي سرعان ما ولّد حرباً أهلية ضاربة. وسرعان ما وجد فرقاء الشرق الأوسط وكثير من بقية العالم العربي أنفسهم متورطين لصالح إحدى فئات لبنان الكثيرة، في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة البلد الوحيد الذي تربطه صلات مع جميع الأطراف.

في الأيام الأولى كانت رئاسة فورد غارقة في دوامة أزمة طائفية في قبرص (انظر الفصل السابع)، وعند نهايتها غرقت في أزمة أخرى في لبنان. كل أزمة منهما كانت تتطلب دبلوماسية معقدة من أجل أن تحمي الولايات المتحدة مصالحها القومية وسط عواطف بدائية. ولما كانت هذه متأصلة في خلافات

ونزاعات دينية تعود عدة قرون إلى الوراء فإن السلام العربي ـ الإسرائيلي لم يلعب إلا دوراً غير مباشر ـــ هذا إذا كان له أي دور يذكر ـ في حسابات الفرقاء المتعددين، الذين لم تكن ضرورات الاستقرار العالمي تعني لهم شيئاً.

ظهر تعقيد النزاع الطائفي والديني في لبنان بصورة مشابهة لذلك النزاع في قبرص. إذ كانت قبرص تتضمن مجموعتين عرقيتين وترتبط بثلاث قوى خارجية، أما نزاعات لبنان فقد كانت تشارك فيها جملة مجموعات في كل جانب من المجموعتين الطائفيتين الكبيرتين ـ أربع منها على الأقل في الجانب الإسلامي، وثلاث في الجانب المسيحي تساند كل واحدة منها قوى عربية أو قوى خارجية أخرى. وقامت كل من سورية وإسرائيل بغزوات مؤقتة للبنان، فيما كانت فرنسا تعتبر نفسها راعية لمصالحه وهو ما يعود لى ميثاق عصبة الأمم الذي وقّع بين الحربين وإلى تدخلاتها المبكرة في القرن التاسع عشر. وكان الاتحاد السوفييتي يدعي لنفسه دوراً كقوة عظمى، أما الولايات المتحدة فكانت حريصة على عملية السلام والحيلولة دون نتائج متطرفة.

نشبت هذه الفوضى في اللحظة الدقيقة عندما بدأ شركاء الشرق الأوسط عام 1973 يتحسسون طريقهم ـ ولو ببطء ـ نحو السلام فيما بينهم ويشكلون أمة صغيرة تعتبر واحة للتعقل ، ونموذجاً لإمكانية الجماعية القائمة على عواطف الشرق الأوسط.

الأزمة اللبنانية تنكشف للعيان

في «سنوات الاضطراب»، الجزء الثاني من مذكراتي، خرجت بهذا الانطباع عن زيارتي للبنان في 16 كانون الأول عام 1973، لمقابلة الرئيس اللبناني سليمان فرنجية:

> أفكر بحزن في هؤلاء الناس المتحضرين الذين أوجدوا في منظمة مضطربة مجتمعاً ديمقراطياً يقوم على احترام حقيقي متبادل للدين. ولكن إنجازهم لم يستمر. فالعواطف التي تعصف في المنطقة كانت أقوى من أن تُحلّ بترتيبات دستورية حاذقة. وكما حدث في الأردن، فإن الحركة الفلسطينية هشّمت التوازن الدقيق لاستقرار لبنان. قبل أن تتخذ عملية السلام مجراها كان لبنان قد تمزق. فوق جسده المنهك، عند كتابة هذه السطور، جميع فصائل وقوى الشرق الأوسط ما تزال تحاول تحقيق أحلامها الخاصة وتبعد كوابيسها الدائمة.[1]
>
> في أقل من سنة ونصف من زيارتي كان لبنان على حافة حرب أهلية. فقد تطور النزاع بين الفلسطينيين (وكان ياسر عرفات في ذروة تطرفه) وبين المسيحيين الموارنة إلى حرب مكشوفة في 13 نيسان 1975. تفاقمت الأعمال العدوانية طول 18 شهراً، تخللها ستين محاولة لوقف إطلاق النار على الأقل. ولما كانت الحكومة اللبنانية المركزية

والسلطة العسكرية قد انهارتا، أصبحت سورية المجاورة، آخذة بالاعتبار أنها وريثة الادعاءات التاريخية، الوسيط الأساسي بين الفصائل. وفي أواخر أيار عام 1976 انضمت إلى النزاع بشكل مكشوف بقواتها العسكرية، مما أثار حفيظة إسرائيل، وأدى إلى تدخل إسرائيلي مباشر عام 1982.

كانت الأسباب الأساسية للأزمة متعددة: فالتوازن الدقيق الذي قام عليه لبنان قرابة نصف قرن أو يزيد قد تزعزع لأن التوازن السكاني بين المسيحيين والمسلمين قد تغير منذ ترتيبات 1943 التي حددت السلطات بين الجماعتين المسيحية والإسلامية، وقد حدث هذا عندما بدأت منظمة التحرير الفلسطينية، بعد طردها من الأردن عام 1970، تستخدم لبنان قاعدة أساسية لها، وجرّت بذلك لبنان إلى الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وكان كل فصيل من الفصائل قادراً على أن يستمد بعض القوة والمساندة الخارجية لنفسه. كل هذا حول لبنان إلى نموذج مصغر لجميع نزاعات الشرق الأوسط بدلاً من أن يكون رمزاً لحلها، كما كان الأمر تاريخياً.

في جبل لبنان، على طول الشاطئ حيث مارس الفينيقيون القدامى تجارتهم، انجذب بقايا الصليبيين ومسيحيون آخرون إلى الأرض المقدسة وأوجدوا نوعاً من الحكم الذاتي تحت الإدارة التركية. ومع مرور القرون انضم الموارنة، وهم فرع من الكاثوليك، إلى المجموعات الأخرى. بعضهم من الأرثوذكس اليونانيين وبعض المجموعات من العالم الإسلامي كالدروز والشيعة. هذه الإمارة اللبنانية المختلطة التي كانت تتشارك السلطة السياسية مع الأقليات الإسلامية، كانت فريدة من نوعها داخل الإمبراطورية العثمانية.

في ثورة 1860، حالت بعثة عسكرية فرنسية غازية دون انتصار المسلمين، وأنقذت المسيحيين الموارنة واحتفظوا بإقليم مستقل ذاتياً في لبنان بحدود أقل ولكن بأغلبية مسيحية واضحة. ومع هذا استمر كثير من قادة الموارنة في الدفاع عن إنشاء الإمارة المستقلة التي كان حجمها ضعف إقليم ما بعد الثورة (انظر الخريطة). وحقق الموارنة هدفهم عام 1920. وعندما حصلت فرنسا على وصاية «عصبة الأمم» ضمت مدناً إسلامية كبيرة مثل طرابلس وصيدا، وبعلبك وصور من سورية. ومن أجل أن يوسع الموارنة دورهم زرعوا بذور التهديد المتزايد لهويتهم. واعتقدت القوة الاستعمارية الفرنسية أن مزيداً من التوازن العرقي من شأنه أن يُحبط أي مطالبة مسيحية بالاستقلال ويجعل فرنسا حامياً دائماً للموارنة. القرار الفرنسي أثار أيضاً رغبة سورية الدائمة في إعادة تحرير المناطق التي خسرتها، أو على الأقل استعادة نفوذ دائم عليها والحيلولة دون إيجاد دولة مسيحية يمكن أن تنقلب إلى رأس جسر لاستعمار غربي مستقبلي. باختصار، إن وجود لبنان في السبعينيات قد ارتهن بقرارات اتخذت في ظروف مختلفة تماماً قبل 50 سنة، عندما توقع قلة النهضة السريعة للقومية العربية.

كانت الترتيبات الداخلية للبنان معتدلة وحكيمة. وعلى الرغم من نمو عدد السكان المسلمين، فإن «الميثاق الوطني» الذي وُضع عام 1943 أوجد توزيعاً للقوى حافظ على السيطرة المسيحية مع إعطاء المسلمين لدور مهم. الرئاسة، وهي قمة السلطة، أعطيت لمسيحي، أما رئيس الوزراء الذي يختاره رئيس الجمهورية فهو مسلم سني، ورئيس المجلس النيابي مسلم شيعي، أما مراكز الدولة فكانت توزع لصالح المسيحيين بمعدل 6 إلى 5 والجيش الصغير المؤلف من 41 ألف رجل كان معظم ضباطه من المسيحيين.

هذا الترتيب لايتوافق مع تأثير السكان المسلمين الذين كانوا يزدادون بسرعة أكبر من المسيحيين، وظهور منظمة التحرير الفلسطينية بعد ترحيلها من الأردن عام 1970. ولم تكن سلطة الحكومة المركزية تطال معسكرات تلك المنظمة، فقوات الأمن اللبنانية أو الشرطة لم يكن يُسمح لها بالدخول إليها. وميليشيا الفصائل المختلفة (بدون حساب منظمة التحرير) كانت تقدر بما لايقل عن 04 ألفاً، وهي كانت أقوى بكثير من القوات المسلحة للحكومة المركزية.

نشب القتال في نيسان 1975 فيما كانت الولايات المتحدة مشغولة بسقوط ساغون وجمود الدبلوماسية الخاصة بمصر ــ إسرائيل. فسرعان ماانضم إلى الحرب مابين المجموعات الفلسطينية المتطرفة والميليشيا المسيحية (الموارنة) عدم مجموعات وزعماء من كلا الجانبين. فبالإضافة إلى منظمة التحرير، والفصائل الفلسطينية المتطرفة الأخرى المتعطشة إلى جعل لبنان قاعدة ضد إسرائيل، كان هناك زعيم الدروز القائد اليساري المتطرف كمال جنبلاط، مصممة على تأسيس دولة إسلامية خالصة. المسلمون المعتدلون كانوا يرغبون بتغيير ميزان القوى مع المسيحيين، وانفصل الموارنة إلى ثلاث مجموعات. إحداها تفضل تقسيم لبنان إلى دولتين مسحية ومسلمة، ومجموعة أخرى تريد استعادة السيطرة المسيحية ضمن لبنان متحد، وأخيراً المعتدلون الراغبون في مجابهة حقيقة أن السكان المسلمين باتوا الآن أكثر عدداً من المسيحيين، وهم مستعدون لتعديل الترتيبات الداخلية كي تعكس هذا الواقع.

كان لكل مجموعة من هولاء أوصياء خارجيون. فالمسلمون المتطرفون كانوا يتطلعون إلى ليبيا والعراق والجزائر لمساعدتهم، أما منظمة التحرير فتعتمد على السعودية من أجل الدعم السياسي ـ وكلتاهما كانتا تستخدمان «المنظمة» لإظهار ولائهما للقضية العربية بقليل من المخاطرة. وكان السادات بشكل خاص، لأسباب تتعلق بالتوازن العربي، يعارض النفوذ المتزايد لسورية والنفوذ الذي يمكن أن تكسبه إذا ماظهر الرئيس حافظ الأسد كعامل مهيمن في لبنان وفيما بين هذه القوى كانت تتراجع مكانة اللبنانيين المعتدلين.

لم يكن للمسيحيين الموارنة مساندة إيديولوجية أو سياسية في العالم الإسلامي، بل كانت تدعمهم فرنسا ظاهرياً أكثر مما تدعمهم فعلياً، وعارضت الولايات المتحدة التعدي على استقلالهم الذاتي

دبلوماسياً، يضاف إلى ذلك أنه في سنة انهيار فيتنام والتنازل في أنغولا، كان التدخلات العسكري المباشر غير وارد. ظهر شريكان غير متوقعين كانا مستعدين لمساعدة المسيحيين: إسرائيل وسورية بدرجات مختلفة.

كانت إسرائيل تعارض ظهور دولة إسلامية راديكالية عند حدودها الشمالية ـ ولاسيما إذا ما اكتسبت «المنظمة» نفوذاً حاسماً. ولكن سوريا لم تكن تفضل أياً من الخيارين. لم يكن الأسد يرغب في أن يجد نفسه محاصراً بين لبنان متطرف وعراق قوي عسكرياً، وكلتاهما تدافعان عن القضية العربية في الهلال الخصيب الشمالي. وكان يرى في عرفات ومنظمة التحرير عقبة أمام تحقيق « سورية الكبرى» تضم لبنان والأردن وفلسطين، وحتى إذا لم يتمكن من تحقيق ذلك في حياته فقد كان يأمل أن يترك هذه المهمة لخلفائه. وأخيراً فإن الأسد، مع رغبته في المحافظة على وحدة أراضي لبنان، لم يكن يرغب بوجود حكومة مركزية قوية في بيروت ـ حتى لو كانت موالية لسورية مبدئياً ـ خشية أن تقلص النفوذ السوري مع مرور الوقت. لتحقيق جميع هذه الأهداف كان الأسد مستعداً لأن يدعم الطائفة المارونية ومؤسساتها ضد الأكثرية المسلمة. بهذه الطريقة وجد نفسه في تعاون غير متوقع، وصعب ومتشنج مع الإسرائيليين.

كان التحدي الذي يواجهنا هو أن نختار هذه العقبات، إذ لم نكن نريد أن تسيطر «المنظمة» على لبنان وفتح جبهة أخرى على اسرائيل، وكذلك إعاقة عملية السلام أو تفرض نفسها عليها. كانت سياستنا التقليدية تأييد الطائفة المسيحية، ومعارضة الهيمنة السورية على لبنان، وأن نرى لسورية دوراً في تحقيق التوازن بين المجموعات الإسلامية المتطرفة طالما أن هذا لايسبب أن تبادر إسرائيل وتبدأ حرباً في الشرق الأوسط. كنا نعجب بالسادات، ولكن تأييد مصر « للمنظمة» في لبنان يعارض أولوياتنا في لبنان. وفوق ذلك، وسط هذه الزوبعة من الشك والكراهيات كنا نسعى إلى المحافظة على عملية السلام العربي ـــ الإسرائيلي، فقد عارضنا التدخل الخارجي مع المحافظة على توازن القوى المختلفة بحيث لاتحقق إحداهما ميزة حاسمة. وفي مؤتمر صحفي جرى في 14 ك2، 1976 قلت:

> نؤيد استقلال وسيادة لبنان.. أي تدخل عسكري خارجي من أي طرف سيشكل تهديداً للسلام والاستقرار في الشرق الأوسط، وقد جعلنا الأطراف المعنية تعرض عن يقين أن الولايات المتحدة تعارض أي تدخل عسكري من أي طرف [2]

في هذا الجو كانت بعض المجموعات المارونية تناقش تقسيم لبنان إلى دوليتن إسلامية ومسيحية. في 16 ت2، 1975 حذر وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام أن سورية تنظر إلى تقسيم لبنان على أنه «أخطر مؤامرة» مما كان يتضمن معارضة ذلك بالقوة [3]. وبعد 12 يوماً حذر ولي العهد السعودي الأمير فهد أن التقسيم سيكون له «عواقب وخيمة» على العلاقات اللبنانية ـ السعودية [4]، وسرعان ما أعلنت الدول العربية الأخرى عن مثل هذا التوجه. وفيما كان القتال يحتدم في بيروت وضواحيها، أوفدت

الحكومـة الفرنسية في 91 ت2 رئيس الوزراء السابق موريـس كوف دومورڤيل إلى لبنان في مهمة لتقصي الحقائق[5].

في أواخر ك1 أعلن الملك السعودي خالد عن تأييده لجهود الوساطة السورية. وردَّ رابين بأن إسرائيل لـن تتساهل إزاء تدخل خارجي في لبنـان[6] وردت القاهرة في ك2 أن مصر لن تقف «مكتوفة الأيدي» إذا ماتحولـت إسرائيل نحو لبنان[7]. ودعا الأمين العـام لجامعة الدول العربية محمود رياض إلى عقد مؤتمر قمـة لبحث الأزمة اللبنانيـة[8]. وفي 20 ك2، 1976 كررت في مؤتمر صحفـي تحذيري السابق ضد تدخل خارجي:

> حذرت الولايات المتحدة جميع الفرقاء المعنيين ـ وأود أن أكرر هنا ـ ضد أي عمل منفرد يمكـن أن يؤدي إلى اتساع الصراع في لبنان إلى مناطق أخرى، ولسوف تعارض الولايات المتحدة أي عمل انفرادي من قبل أية دولة يمكن أن يؤدي إلى توسيع العدوان..
>
> المجتمع الدولي أمامه التزام لإنهاء أعمال القتل التي تجري هناك باستمرار.. واستخدام جهـوده التوسطيـة لكي تتعايش المجموعتان في سلام كمـا كانت طوال عقود عدة ووضع نهاية للنزاع الدائر الآن[9]

كانـت هناك أسباب للاهتمام بنوايا سوريـة. فقد بدأت وحدات من جيش التحرير الفلسطيني الذي يتبـع رسمياً منظمة التحريـر، ولكن عملياً فـرع فلسطيني من الجيش السوري ـ تتسلل إلـى لبنان مما دعـا رابيـن إلى تحذير فورد بمناسبة اجتمـاع في «المكتب البيضاوي» فـي 28 ك2 بأنه إذا دخل الجيش السوري فلسوف تتحرك قوات إسرائيلية إلى لبنان حتى نهر الليطاني (الذي يبعد حوالي 20 ميلاً شمالي الحدود).

أبلغـت السفير ريتشـارد مورفي في دمشق بأن ينقل أملنا إلى العماد حكمـت الشهابي، رئيس الأركان السـوري، لكي يقوم السوريون «بـكل مافي وسعهم لضمان وقف إطلاق النار وإفسـاح المجال أمام تسوية سياسيـة». لاحظت أن تدفق تعزيـزات الفدائيين الفلسطينيين كان في ازدياد، وأن «بعض هذه التعزيزات كانـت من قبل وحدات سورية تسانـد منظمة التحرير» وهذا مايعارضـه الإسرائيليون بالتأكيد. ومن أجل أن أوضح عدم الانحياز أضفت بأن على الشهابي أن يدرك أننا أعلنا معارضتنا لأي تدخل خارجي من أية جهة «لقد خاطبنا الإسرائيليين كما نخاطب السوريين».

وكما جرت الأمور فإن الإنذار تجاوزته الأحداث. ذلك أنه في 22 ك2 أمكن للوساطة السورية أن تحقق وقـف إطلاق النار وتتقـدم باقتراح للإصلاح السياسي وهو ماتم الاتفاق عليه أثناء زيارة الرئيس فرنجية إلى دمشق وأعلن عنه في 41 شباط. وكشأن جميع «التسويات» السابقة فإن هذه المبادرة قلصت من تفوق المسيحيين ولكنها لم تنهه. ظل الرئيس مسيحياً، ولكن صلاحياته تجاه رئيس الوزراء السني قد تقلصت

وأصبح عدد النواب المسيحيين والمسلمين في المجلس النيابي متساوياً. أطلقنا على هذه الخطوط اسم «الحل السوري» في مناقشاتنا الداخلية التالية.

انتهت المرحلة الأولى من الأزمة اللبنانية. التعاون الخفي لإسرائيل وسورية والولايات المتحدة قد أغرى الفرقاء اللبنانيين. بإعادة صياغة توازن جديد، ولكنه كان توازناً حذراً، لأن النتيجة كانت هشة أمام أفعال أي من الفرقاء تحقق تفوقاً. ولقد جربنا في قبرص منذ سنتين أن توازن القوى يحقق استقراراً إذا كان الفرقاء المعنيون يرغبون في السلام أو أنهم أُنهكوا تماماً بحيث لم يعد بوسعهم متابعة صراعاتهم. كلا الشرطين كان متوفراً في لبنان.

في هذه الظروف كانت العودة إلى مهمات مسيرة السلام العربي ـ الإسرائيلي مريحة حقاً.

عودة إلى مسيرة السلام

أضافت الحرب الأهلية في لبنان بعداً جديداً إلى الدبلوماسية العربية ـ الإسرائيلية. واحتمال تحولها إلى حرب عامة في الشرق الأوسط جعل التقدم باتجاه تسوية شاملة أكثر إلحاحاً. ولكنها قد تنقلب في جبهات أخرى. كان السادات لا غنى عنه بالنسبة لى استراتيجيتنا الشاملة، ولكن في لبنان، قوّى الدعم المصري من عضد الراديكاليين. وكان الأسد المناور الأصعب في مفاوضات عامة، ولكن في لبنان عدم ثقته بنتيجة متطرفة تتوافق مع مصالحنا. علينا أن ندير دبلوماسية عربية ـ إسرائيلية فعالة حتى لو وافقنا مع رابين والسادات بأننا لن نحصد ثمارها على الفور، وعلينا أن نفعل ذلك مع الرضا بعواطف لبنان وتعقيداته.

المشكلة أن الفرقاء كانوا يرفضون السلبية، ولكنهم كانوا أيضاً يترددون أمام آفاق مفتوحة لأي خيار دبلوماسي متوفر. لم تكن إسرائيل مستعدة للعودة إلى حدود 1967 أو إلى التفاوض مع منظمة التحرير ـــ وهما مطلبان أساسيان. ولكن رابين كان يعرف أن إسرائيل بحاجة إلى تغطية دبلوماسية لتحول دون التحام جميع الضغوط العدوانية. والسادات كان يسعى بضغط من سورية على وجه الخصوص لتوقيع اتفاقيتين منفصلتين مع إسرائيل، إلى أن يُظهر أن العرب الآخرين يمكن أن يستفيدوا من الدبلوماسية ذاتها ـ الانفتاح دوماً على خيارات التقدم وحدها.

كان الأسد يناور بين إيجاد طريقة للمشاركة في اتفاقية مؤقتة توافق هواه، وإذا أخفق في ذلك، يعارض أية اتفاقية منفردة من قبل أي فريق ـ ويعالج الأحداث في لبنان ببراعة دوماً. كان الملك حسين يراقب مناورات الفلسطينيين وقد كان يخشى من أن يهدد وجود منظمة التحرير الفلسطينية في الضفة الغربية الحكم الهاشمي. ولكنه منع في شهر ت1 1974 في مؤتمر القمة العربية في الرباط من انتهاج دبلوماسية خاصة به. الزعماء العرب المنقسمون على أنفسهم ـ والذين يشك أحدهم في الآخر ـ مع دعوتهم جميعاً للوحدة العربية ـ كانوا يطالبون ببرهان ما على أن عملية السلام لم تتجمد.

لهـذا قررنا أن نستفيد من عـام 1976 لإعداد استراتيجية تنفذ بعد الانتخابـات الرئاسية. وللحيلولة دون فجوة في التوترات المتزايدة كنا مضطرين إلى التعامل مع جميع الفرقاء في وقت واحد. فمفاوضات فعليـة على جبهة بمفردها يمكـن أن تحقق زخماً ويعطيها النجاح الشرعيـة. ولكن إذا لم تجر مفاوضات لمدة سنة على الأقل فسيكون لدى جميع الفرقاء الذين لم يعد لديهم مايخسرونه حافز لتحقيق مايفيدهم وسيكون المستفيد الأول السادات.

تعلمنـا فـي عـام 1975 أن العواطف التـي جعلت مسيـرة سلام ضرورية جـداً كانت ضـد محادثات استكشافية. من الصعب إعطاء تنازلات إلى شعب عاطفي من أجل صفقة فعلية. كانت هذه مشكلة خاصة فـي إسرائيل الديمقراطية، ولكن لما كان المفاوضون العرب لم يواجهوا جماهير انتخابية صعبة المراس كهـذه فقد كان لديهم منافسون في الداخل يمكـن أن يستخدموا تنازلات مجردة ـ أو حتى تأخير الوصول إلى اتفاق ـ ضدهم.

كما أنهم كانوا مبالغين في الشكوك في حكامهم العرب لأنهم كانوا يمتنعون عن مشاركتهم في الآراء البعيدة المدى ـ أو حتى تطوير هذه الآراء في المقام الأول.

كانـت سياسـة السادات تحمل الوعـد ولكنها كانت أكثر فعالية عندما كان فـي وضع يمكنه من اتخاذ خطوات درامية مفاجئة. لهذا حاول الزعيم المصري أن يجتاز الثغرة عام 1976 وراء ستار من التأكيدات، ولمـا كان يعـي أن أية خطوة منفردة أخرى قـد تعزله وتقطع عنه المساعدت التـي كان يتلقاها من الدول العربيـة المنتجـة للنفط، عمل السادات علـى رفع شأن القضية العربية عن طريـق حض الأمريكيين على تقديـم مبادرات تجاه منظمة التحرير. بعض «المستعربين» لدينا اعتبروا هذا عملاً ظاهرياً، أما تقويمي فـكان مختلفـاً كان السـادات في رأيي يريـد ماهو أقل مـن مفاوضـات فلسطينية قبـل أن تستعيد مصر أراضيها. فتقديم «المنظمة» إلى المفاوضات سيؤدي إلى طريق مسدود طويل، لأنه سيثير قضايا حياة أو موت بالنسبة إلى إسرائيل مما يؤجل جميع المبادرات الأخرى.

أوضحت تقويمي في اجتماع مع سفراء أمريكا في الدول العربية في باريس في 22 حزيران:

إنـه يستخدم عرفات الآن لينهي عزلته. بعد سنة مـن الآن، عندما نكون في منتصف عملية السلام.. وتبـدأ منظمة التحرير بالصراخ «وماذا بشأن الفلسطينيين» سوف يغلق السادات جميع مكاتب المنظمة ويطردهم.

عندما حضّ السادات على التقدم في جميع الجبهات اعتبرت هذا تغطية لانفصال نهائي للدبلوماسية المصريـة وكوسيلة لتبرير مافعلـه بنفسه. لخصت التحدي الذي واجهه السـادات في مذكرة رفعتها إلى فورد في أواخر حزيران 1976:

كان على السادات أن يبرهن على ولائه الأساسي للقضية العربية مع المحافظة على الالتزامات التي قدمها لإسرائيل في اتفاق سيناء ـ2 لقد أصبح حجر الأساس في الولاء للقضية العربية هو تأييد الفلسطينيين ولقد قام السادات بما يستطيع لتأكيد هذا الولاء، في هذا المجال وحرص على ألا يترك الميدان لسورية بالكامل. هنا نراه يواجه أزمة أساليب، إذ لما كان تأييد قضية «المنظمة» كما كان يفعل الأسد قد أدى إلى طريق مسدود، فقد كان الطريق المريح الوحيد حقاً للخروج من هذه العزلة، بالنسبة للسادات، هو الاستمرار في المفاوضات والتخلي عن باقي الفرقاء العرب.

كانت استراتيجية الأسد معقدة على نحو مشابه، إذ لما كان يفتقر إلى مايكسبه، فقد كان معنياً قبل كل شيء بعارضة السادات. خلال مفاوضات الاتفاقية المرحلية وفي أعقابها مباشرة، كان الأسد يعمل على استكشاف ترتيب مشابه بالنسبة إلى سورية في مرتفعات الجولان. ومع هذا فإن اتفاقية مرحلية مع سورية كانت أكثر صعوبة لأن المنطقة بكاملها موضوع البحث كانت بعمق 50 كيلو متراً. وكان الانسحاب الجزئي الإسرائيلي يرتبط بخسارتين: أن يكون أقل درامية في أعين الرأي العام من تقدم مصر في سيناء الواسعة، والأكثر تهديداً لإسرائيل من الناحية الاستراتيجية بسبب بعدها عن المراكز السكانية الإسرائيلية، والأكثر من ذلك أن الأسد كان يستطيع أن يقرأ في كل صحيفة إسرائيلية أن حكومة إسرائيل رفضت أي اتفاق مرحلي بشأن الجولان، وأن هذا من شأنه في أية ظروف عدم التخلي عن كل الجولان حتى في اتفاقية سلام نهائية.

وهكذا أعطى الأسد لنفسه دور الناطق باسم القضية العربية برمتها، وقد لخص معارضته للسادات في رسالة إلى الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان في 30 ت1، 1975. قال الأسد إن تصرف السادات حول ماكان نزاعاً عربياً ـ إسرائيلياً شاملاً إلى نزاع بين بعض الدول العربية وإسرائيل، ضارباً عرض الحائط بقرارات سلسلة من اجتماعات القمة العربية. أحكام اتفاقية سيناء ـ2 التي ستبقى سارية «إلى أن تستكمل باتفاقية ثانية» قد حرمت حتى مصر ـ فضلاً عن الدول العربية الأخرى ـ من مزية استرجاع الأراضي الباقية المحتلة من قبل إسرائيل منذ 1967. وإمداد الولايات المتحدة الضخم بالأسلحة لإسرائيل سيجعل الاتفاقية «مناقضة» لرعاية أمريكا لعملية السلام. كل هذا جعل مصر أكثر ارتماء في أحضان المعسكر الأمريكي وهو ما أوضحه الأسد:

كنا نظن، ولسوف نظن دوماً أنه من الضروري أن نتعامل مع القوتين العظميين بدون الوقوع ضمن نطاق نفوذ إحداهما. انطلاقاً من هذا المفهوم قمنا بقوة بجهود جدية لمنع الاستقطاب إلى صف إحدى القوتين العظميين في المنطقة، في حين أن اتفاقية سيناء تتناقض مع هذه الجهود.

مـع هذا لـم يحل الأسد دون خطوة مرحلية، ولكن ليس خطـو تقتصر على سورية، اقترح على مجلس الأمن أن يتولى المسألة، وضمن هذا الإطار، فإن سورية ستأخذ بعين الاعتبار اتفاقية مرحلية على أن تشمل الفلسطينيين أيضاً. وقد عارضنا هذه الخطوة للسبب ذاته الذي جعلنا نتملص من عقد مؤتمر جنيف : أن يتحول المؤتمر إلى منبر ضدنا.

عـزز التوتر بيـن مصر وسورية دور «منظمة التحريـر» في عملية السلام، وفي لبنـان معاً. ولكن لمّا كانـت المفاوضات الإسرائيليـة المباشرة مع «المنظمة» مستحيلة، فقد بـرز صوت الملك حسين كناطق باسـم الفلسطينييـن. ولكن الملـك حسين كان حذراً بسبـب تجربته المرة في مفاوضـات 1974. وأشار، مبدئيـاً أنـه سيكون راغباً في تجاوز قرار القمة العربية إذا قامت إسرائيل بانسحاب «مهم» من الأراضي، التي حددها بمستقيم دوله قرابة 10 كيلومترات وراء نهر الأردن. في تلك الحالة سوف يحث الملك حسين السوريين والسعوديين والمصريين على استئناف دور المفاوض. وكأي اقتراح أولي حول عملية السلام في الشرق الأوسط، فإنه لم يلق قبولاً نظراً لأن انسحاباً بخط مستقيم عن النهر كان مرفوضاً دوماً من جانب إسرائيل، الذي كان مفهوماً الوحيد كل في الضفة الغربية هو «مشروع ألون» المذكور في الفصل 11.

مـن بيـن جميع الفرقاء، كانت إسرائيـل تواجه أصعب تحد نفساني. فعلى مـدى سنتين. منذ الهجوم العربـي المفاجـئ في ت1 1973. لم تكن تؤجل انتزاع قرار: الأول أن الحرب والمفاوضات التي لا تبدو لها نهايـة. كل منها يتضمن تخلـي إسرائيل عن شيء من أمنها الواقعي مقابـل أشياء غير ملموسة في عملية السـلام. وكل مفاوضة منفردة تجعل دومـاً بعض العرب غير راضين وبالتالي استئناف المجابهة الشاملة مـرة أخـرى. أخيراً، صحيح أن المفاوضـات خطوة ــ خطوة حمت إسرائيل مـن مواجهة اتخاذ القرارات الصعبـة جـداً مرة واحدة، إلا أنا لم توفر نهاية درامية. وقد أوضح رابين لفورد: «هذا ما يُقلق بعضهم في إسرائيل، وبدلاً من أن يُتعب العرب فإنه يُتعب أمريكا».

السادات ورابين يزوران واشنطن

كان السادات أول رئيس مصري يزور الولايات المتحدة. وقد رفعت مذكرتي إلى فورد حول هذه الجولة التي استمرت من 26 حتى 5 ت2، والتي جاء فيها:

هذه الزيارة تجسد التغيير غير العادي الذي جرى على مدى السنتين الفائتتين، لدينا اهتمام تكتيكي بتعزيـز قناعـة السادات أن الولايات المتحدة هي القوة الوحيدة القادرة على تحقيق حل النزاع في الشرق الأوسط بشروط ترضي مصر والعرب.

أما على المدى البعيد:

فـإن الولايـات المتحدة لديها مصالـح استراتيجية في أن تستمر مصـر في طريقها في

العالم وتظل مصالحها في الشرق الأوسط محفوظة، ونشرع في تطوير علاقة مع مصر.. تعـزز السـادات.. من أجـل أن نحافظ علـى بقاء وحيويـة استراتيجيتنا فـي سالزبورغ، والحيلولـة دون قيـام الاتحاد السوفييتـي والعرب المتطرفين من الانبعـاث على حسابنا وحسـاب السـادات، نحتاج إلـى أن نطور معاً بعض الأفكار الخاصة مـن أجل مزيد من التقـدم ـــ الذي قد يضيـف شيئاً ـ ولو محـدوداً ـ بالنسبة إلى سوريـة ويشير إلى بعض المرونة في موقفنا تجاه الفلسطينيين.

لـم نبدأ من فراغ. فـي نهاية الجولات المكوكيـة التي أدت إلى اتفاقيـة مرحلية في شهر أيلـول، قابلت السـادات ووزير الدفاع المصـري محمد عبد الغني الجمصـي في أسوان لمناقشة الخطوات التالية. قلت إن لدينا الخيارين ذاتهما: عقد ندوة شاملة في جنيف، أو اتخاذ خطوة مرحلية أخرى. جنيف لا توصلنا إلا إلى حائط مسدود. فالاتحاد السوفييتي وسوريـة سوف يصران علـى مشاركة كاملة من جانب منظمـة التحرير، وهو الأمر الذي لـن توافق عليه إسرائيل. إذ ما إن ينعقـد المؤتمر بعد أشهر من الاختلاف، فإن الخطوة التالية أن العرب والسوفييت سوف يضغطون من أجل العودة إلى حدود 1967. وإذا كانت هـذه النتيجـة مقبولة على حدود مصر فإن إسرائيل لا يمكـن أن توافق على هذه الحدود في مرتفعات الجولان أو الضفة الغربية.

لـذا كان من الأفضـل أن نتجنب المجادلات حـول الأمور الإجرائية ونلتفـت مباشرة إلى الجوهـر. إذ مـن أجل اتخـاذ اتفاقية مرحلية للعمـل لا بد أن تكون الخطـوة مهمة فعلاً. ولتفـادي التهمـة بأن الهدف هو إحـداث الانقسام بين العرب كان مـن الضروري تقديم المفهـوم نفسه على جميع الجبهـات. ما كان مطلوباً هو إجراء انسحـاب إسرائيلي مهم لتبريـر إنهاء حالـة الحرب (أو العداء). فـإذا تلقى كل واحد الاقتـراح الأساسي نفسه، فـإن الخطوة التالية أي في عملية السلام مرهونة بكل طرف. بعبارة أخرى، ما إن تُطرح الفكـرة فـإن لكل طـرف الحرية فـي أن يناقش مصالحه فـي أن يدرسهـا ويطورها كان السادات مكتئباً ولكنه لم يرفض المعالجة العامة. كان يريد أن أعرف جوابه عندما يزور واشنطن في غضون شهرين. ولكن في اللحظة الحرجة في الشرق الأوسط فإن عدم رفض خطوة جزئية ثانية يكون قريباً من الموافقة.

وفـي واشنطـن كانت مباحثـات السادات مـع صناع السياسـة الأمريكييـن منقسمة إلى جزءيـن. لقد ناقش المفهـوم الأساسي مع فورد ولكن تفصيـلات مباحثات أسوان كانت معي.

سهّل الرئيس المصري الأمور على فورد. فبعد أن أعدّ سياسته. والقضية العربية من عدة وجوه. كي يكسب ثقة الولايات المتحدة، اختار بتعقل ألا يهددنا أو يبتزنا. على العكس، في الاجتماع الأول مع الرئيس فورد في » المكتب البيضاوي» في 27 ت1، شكر السادات فورد بسخاء على جهوده في إنجاز اتفاق سيناء ــ 2 وبهذا وضع أساساً لتأييد مستقبلي:

بـدون هذه الجهود ما كنـا نستطيع أن نحقق اتفاقية سيناء هـذه. ينبغي أن أهنئك. لأول مرة يسمع الإسرائيليـون منطقاً وتصميماً وهذا لمصلحة الإسرائيليين كما هو لمصلحة زملائي العرب ـ وإن كان أي منهم لايفهم ذلك اليوم.

اختـار السادات الأسلـوب الصحيح حقاً لحث الرئيـس على خدمة قضيته. كان فـورد ميالاً دوماً إلى استعراض النوايا الطيبة أكثر من الضغوط، وأكثر استجابة للمداولات باسم الصالح العام من التأكيدات على الإدارة الذاتية. ولهذا فإن فورد أظهر استعداده لتأييد عملية السلام التي كان على السادات وعليّ أن نناقشها، تاركين مسألة التوقيت فقط مفتوحة :

يجـب أن تعملـوا معنا في مسألة التوقيت. ولكنني أستطيـع أن أؤكد لك أنني سأكون ثابتاً فـي المستقبل كما كنت في الماضي. لا معنى لاتخـاذ خطوات صغيرة عندما نستطيع أن نتخذ خطوة كبيرة.

كرر السادات القول إنه لا يضغط : أمامنا طريق طويل.. بالنسبة لهذه الزيارة ليس عندي شـيء خاص. بهذه الطريقة حقـق هدفه في إغراء فورد على عرض دور أمريكي كبير في المرحلة التالية من استراتيجية الشرق الأوسط. وعد فورد السادات

«أريد أن أملأ الفراغ. والسؤال هو مدى السرعة التي نستطيع أن نقوم بها لذلك. والمسألة الثانية هي كيف نستطيع أن نعمل معاً في استراتيجية مشتركة من أجل الشرق الأوسط».

فـي وقـت الراحة تحدث السادات كحليـف. إذ طرح طلبه المعتاد مـن الولايات المتحدة فـي أن تتباحث مع «منظمة التحريـر» وإن لم يلح كثيراً على مشاركتها في عملية السلام كـي يقلص النفوذ السوفييتي لدى العرب. وخلافاً لأشقائه العرب لم يأخذ السادات على محمل الجد خطر أن تبادر حرب شرق أوسط ثانية:

لا أظن أن سورية ذاهبة إلى الحرب. إنهم يفعلون هذا لأسباب داخلية كي يظهروا كم هم أشداء. ربما لبنان هي السبب.

حتـى في ذلـك الحين، في تشريـن الأول 1975، كان السـادات مهتماً بتأثيـر لبنان على الآفاق العامة للسلام:

تأكـد مـن فضلـك يا سيادة الرئيـس أن الإسرائيليـين لن يتدخلوا، لا أحـد في العالم العربي سيعتقد بعدم وجود تنسيق مع الولايات المتحدة.

ثـم جاء هجوم السادات على الملك حسين، إذ عرضه على طريقة المخرج ألفرد هيتشوك فـي مشاهد أفلامه. وصف الملـك بأنه «رجل طيب» يستشير «رئيـس وزراء لا يُعتمد عليه» (زيـد الرفاعي) وينهج منهجاً انتحارياً في مواجهة كلٍ مـن منظمة التحرير وسورية الذي أنصح بأن تبتعد عنه الولايات المتحدة وعندما قيل كل شيء كان هذا يعني أن السادات كان يحـث على التفاوض مع «منظمة التحرير»، التي لـن تتفاوض معها إسرائيل، وترفض دوراً للأردن الذي قد تكون إسرائيل مستعدة للتباحث معه. كان وصفاً دقيقاً للجمود على الجبهة الفلسطينية وأساساً لنقلة مصرية منفصلة أخرى نظراً لأن عملية السلام لا تتحرك.

وكما اقترح فورد، عقدت أنا والسادات عدة اجتماعات في واشنطن، واجتماعاً أخيراً في جاكسـون فيل، ولاية فلوريد، لتطوير استراتيجية مشتركة لعامي 1976 و1977. وقمت أنا ومساعدي (هاك سوندرز وروى أثرتون وبيتر رودمان) بدراسة مفصلة لمعالجة كنت قد أوضحتهـا للسادات في أسوان. ولما كانت المسافات لا تعني إلا القليل في الاتساع الهائل لصحـراء سيناء، فإن ذهن المتفاوضين يلتفت حتماً نحو نقطة علام لا تصطدم عندها المفاوضات. لذلك اقترحنا للدراسة خطاً جنوب مدينة العريش الساحلية على المتوسط يبعـد حوالـي 35 كم عن حدود إسرائيل. وهـذا يتطلب انسحاباً بمقـدار 100 كم وإعادة أربعة أخماس سيناء إلى مصر في مقابل إنهاء حالة الحرب ما بين مصر وإسرائيل.

أشار السادات إلى أنه أولى اهتماماً كبيراً بأفكارنا. وسأل ما إذا كانت وزارة الخارجية قد درست الفرق بين إنهاء حالة الحرب وتحقيق السلام النهائي. لم يكن لدي فكرة ولكنني وعـدت بإعطاء مثل هذه الدراسة إلى وزير الخارجية إسماعيل فهمي حين تتوفر. عندئذ طلـب السادات من فهمي تشكيل فريق عمل لدراسة الفكرة. ومرة أخرى، كعادته، اقترب من إحداث اختراق. قال السادات إنه قادر على «النظر» في مفهوم الأرض مقابل السلام علـى أسـاس انسحاب إسرائيـل إلى خط لا يقل عـن مسافة 25 كم عن حـدود إسرائيل (وكان هـذا يزيـد بمقـدار 10 كم عما كنت اقترحتـه. والذي كان في نطـاق التفاوض). ذهبنـا بعيداً بقدر ما نستطيع. قلت للسـادات إننا سنستكشف الأمر مع رابين وكذلك مع الأسد وحسين وأخبره بعد ذلك.

بقية رحلة السادات إلى أمريكا أمضاها في إظهار الوجه الإنساني والمسالم للعرب أمام الجمهـور الأمريكي. ففي نيويـورك كانت هناك احتجاجات من قبـل مجموعات مختلفة

علـى أرضيـة أن السادات لم يعرض بعد التفاني المناسب مـن أجل قضية السلام ولكن السـادات استُقبـل استقبالاً حـاراً في شيكاغـو وهيوستون وأجرى مقابـلات واضحة مع معلقين وديين حول سلسلة من الموضوعات.

كانت هناك بعض المتاعب بالطبع في رحلة السادات الطويلة. وقد حرص فورد في ختامها على إعـداد وليمة غداء فاخر كشأن الدعوات التي كان يوجهها لكبار الإسرائيليين الذين كانوا أكثر تردداً بالطبع على أمريكا من المصريين الذين يمثلهم السادات في زيارته الرسمية هذه. صحح الرئيـس الهفـوة على الفور، وكان من الممكن أن تمر بدون ملاحظة لولا أن سكرتيره الصحفي رون نيسين قد وجد أنها قد تحدث ثغرة في المصداقية إذا مانشر النص الاختزالي.

أخذت دبلوماسية الشرق الأوسط الآن طابعاً عملياً والتي كانت المفاوضات من نتائجها. لقـد لعب السـادات دور السيد العظيم في حين كان رابين ـ الـذي زار الولايات المتحدة مـا بيـن 26 ك2 و 5 شباط ـ حذراً يتصرف كمالك أرض صغيـر يناضل من أجل البقاء. لـم تعكس هذه المواقف خلافاً بين الشخصيتين بقدر ما كانت تعكس المواقف المختلفة للبلديـن. فعندمـا تحكم بلاداً تمتـد من البحر المتوسـط إلى قلب أفريقيـة، كما يحكم السـادات، فإنك تملك الجغرافيـا كمؤشر كبير. وعندما تكون الأرض الوطنية يمكن أن تقطعهـا فـي ساعة بالسيارة فـإن حجم المبـادرات الدرامية يتضـاءل. التنازل من قبل السـادات كان يعنـي أنـه سيتلقى بالمقابـل أقل مما يسعـى إليه، أما بالنسبـة إلى رابين فإنـه حتى الصفقة الكريمة كانت تتضمن خسارة للأرض وحسابات معقدة ما بين الأمن والشرعية. هذه الحسابات جعلت الأمور أصعب من جانب أكثرية برلمانية ضئيلة، ومجلس وزراء منقسم، والطبيعة النظرية والمجردة لدبلوماسية «الثغرة».

تعلـم رابين الكثير من تجاربه في السنـة الفائتة. وكان عليه أن يفهم أن واشنطن وجدت صعوبة في التمييز ما بين رأيه الشخصي وما تؤيده حكومته. هذه المرة كان يتأكد رابين قبل لقاءاته الثلاثة في «المكتب البيضاوي» أن يراجع معي ما سيقوله للرئيس وكيف يمكن تفسيـره في إطار الصراعات التي تجري بين الجميـع والتي تجري ضمن مجلس الوزراء الإسرائيلـي ـ ولا سيما في فترة رابين الأولى من الحكم. وبحكم مودتي لرابين وثقتي في نواياه، ولأنني كنت حريصاً مثله على تجنب سوء التفاهم الذي جرى في السنة الماضية، كنت أُبيّن له مرة بعد مرة كيف يفسر فورد وأنا ما نناقشه أو نوافق عليه.

فـي لقائهمـا الأول في المكتـب البيضاوي فـي 28 ك2 1976، أكد فـورد أن الجمود ليس بموقف:

مهما قررنا فإن مقاربتنا ينبغي أن تكون إيجابية وأن تعكس حركة بشكل ما. أنت يا سيادة رئيس الوزراء ووزير الخارجية يجب أن تجدا استراتيجية في عامي 1976 و1977 ترمي إلى هذا الهدف وهذا يمكن أن يتطلب قرارات حاسمة في الداخل وفيما يتعلق بالمسائل الأخرى ـ كالعلاقات مع الاتحاد السوفييتي مثلاً. إذ ينبغي أن نقنع العالم أن استراتيجيتنا تتضمن، وموضوعة من أجل تشجيع التحرك قُدماً. ينبغي أن نحافظ على استمرار زخم المبادرة. وفي هذه المسيرة ينبغي أن تكون إسرائيل والولايات المتحدة معاً.

بيّنت لرابين رغبة السادات الواضحة في وضع حد للاحتراب والعداء إذا انسحبت إسرائيل حوالي 25 كيلومتراً عن حدودها. وقد فسر رابين ذلك على الفور، كاستراتيجي، على أنه انسحاب إلى خط يجاور العريش.

وعندما انتقلت المناقشة إلى المسائل المتعلقة بالضفة الغربية بيّنت لفورد، بحضور رابين، وضع مناقشتنا:

كنت أشعر دوماً أن علينا إيجاد برنامج ما يسمح لنا بالسيطرة على الجدل والمناقشات، وهذا يتضمن اتفاقية حول المكاسب المحتملة للتقدم في جنيف بحيث يكون لدى الطرف الآخر سبب ما لحضور المؤتمر بدون «منظمة التحرير». انطباعي عن محادثاتنا في الصباح أن رئيس الوزراء يرى هذه الفكرة قابلة للبحث. وهو يرى أنها ستنجح مع مصر وسوريا وبالنسبة للأخيرة فإن إزالة بعض المستوطنات في مقابل إنهاء حالة الحرب سوف يكون مقبولاً. أما فيما يتعلق بالأردن فإن مثل هذه المعالجة قد تثير مشكلات داخلية خطيرة في إسرائيل. لذا فإن هذه المسألة ستظل بلا حل، ولكننا نوافق على أنه خلال وجود رئيس الوزراء في الولايات المتحدة، سوف نلتقي ثانية لمتابعة مناقشة المسألة.

بعبارة أخرى وافق رابين على أن عرض انسحابات أخرى جوهرية على جميع الجبهات (دون حدود 1967) في مقابل إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل بموجب اتفاقية سيمثل أفضل استراتيجية لعامي 1976 و 1977. ويستطيع كل بلد عربي أن يبرر قراره باسترجاع أراض مهمة، وإذا أخفق العرض الشامل فسيكون لدى السادات المسوّغ لمتابعة طريقه الخاص. ولكن رابين تحفظ إزاء التفاوض مع الأردن.

التقيت برابين ثانية في لوس أنجليس في 3 شباط لمراجعة الاستراتيجية بعد عشاء تحت عنوان «تحية إلى إسرائيل» في فندق «بيغرلي هيلز» حيث أبدى كثير من كبار صناعة السينما تأييدهم لإسرائيل. وأثناء الاستراحة دُعي رابين من قبل ديانا روس لكي يغني

منفـرداً الأمـر الذي أزعج رئيس الـوزراء كثيراً. وعندما وصلنا أخيـراً إلى الغرفة العليا لمراجعـة الاستراتيجية المشتركـة، أعلمني أنه سيوصي حكومتـه بإجراء مفاوضات مع الأردن. أي شيء يجنبه الغناء وحيداً.

فـي 25 شبـاط أعلمني السفيـر سيمحا دينيتز أن رابين حصل علـى موافقة حكومته من أجـل القيام بانسحابـات واسعة، تشمـل الأردن، في مقابل وقف حالـة الحرب. وحددت الحكومة الخط بالنسبة لمصر بالخط الواصل ما بين العريش ورأس محمد، مما سيبقي ثلـث سيناء في يـد إسرائيل. وكان من الممكـن أن يرفض السادات هـذا التحديد ولكن الاتفـاق، في هذه المرحلة، حول الفكرة كان أكثر أهمية من تنفيذها. انفتاح الاقتراحات الاسرائيليـة لـم يكـن بالأمر السهل قط، ولكـن بعد أن يبـدأ المفاوضـات، فإنها تخضع للتعديل.

في بداية آذار، كنا نثق ثقة كافية بنقل رد فعل إسرائيل إلى السادات، وأن نطلب موافقته علـى نقل اقتراحنا الرسمي إلى الأسد والحسيـن. وقد أعطينا التعليمات إلى سفيرنا في القاهـرة، هيرمان إيليتـس، فرصة لتقدير فوائـد الاستراتيجية وأن نضـع البدائل أمام السادات:

إذا اعتبرها السادات مقاربة مفيدة فسنحتاج إلى أن نعرف رأيه حول كيفية التقدم وكيف يمكـن تنظيم الجهد، وكيف يمكـن إشراك الحكومات الأخرى فيـه؟ سوف ننتظر جواب السادات قبل القيام بخطوة تالية.

إذا لـم يوافـق السادات، فلا سبيل إلى تطوير الاقتراح أكثـر مع إسرائيل. بدلاً من ذلك، علينـا أن نبحـث عن سبيل إجرائي ما لإعادة عقد مؤتمـر جنيف، مع كل الصعوبات التي تكتنف هذا التوجه.

فـي 11 آذار، وضـع إيليتس اقتراحنـا الرسمي الجديد للسادات، الـذي أرجأ جوابه حتى يستطيـع استشـارة خبرائه. وكمـا توقعت فقد أشار إلـى قصور مشـروع العريش ـ رأس محمد، ولكنه لم يتخذ هذا مبرراً لرفض الفكرة. كما وصف غياب دور «منظمة التحري الفلسطينية» على أنه «مشكلة خطيرة»، مما كان يعني بلغة الدبلوماسية أن استبعاد عرفات ليس بالعقبة التي لا تقهر. وعندما يقال كل شيء ويتم فعله، رغم تحفظاته، فإن السادات ـ بحسب رأي إيليتس ـ سيؤكد تكراراً موقفه بأن ينظر لى فرصة استرجاع «أي شبر» من الأراضي، و«أنه كثيراً ما حثّ عرفات وزملاءه العرب على أن يقوموا بالشيء نفسه». وكان يـرى أن جهـود الولايات المتحدة على حمـل إسرائيل على التحدث حـول الضفة الغربية

أمـراً مريعـاً ـ «برافو». ورأى أنه قـد يكون من المفيد محاولة عرض الفكرة على الأسد (ولكـن ليس بتفاصيل سيناء)، «وإذا ما رد الأسد بطريقة إيجابية عندئذ يستطيع المرء أن يستكشف وسائل علاجية أخرى».

فـي 18 آذار كرر فهمي انتقاد السادات، ولكنه في النهاية (بحسب كلمات ايليتيس) وافق كليـاً على طرح الفكرة على السوريين والأردنيين، مفترضاً ـ كما كرر ـ أننا لن نتكلم عن الجبهـة المصريـة». وهو ما فسرناه بمعني أن السادات لم يـرد أن يكون الشخص الثاني في صفقة هو الذي كان يفكر فيها بوضوح.

وهكـذا بـات الطريق واحداً للتقدم بمفهومنا العام إلى الأسـد والحسين. وقد فعلنا ذلك بالضبـط، ولكن قبل أن تصل استكشافاتنا بعيداً جـداً، اتجه اهتمام الفرقاء إلى لبنان. إذ في تلك اللحظة الثمينة انفجر البركان اللبناني.

التدخل السوري في لبنان

في 8 آذار انفصل الجنود المسلمون عن الجيش اللبناني وانضمّوا إلى ما سمي بالجيش العربي اللبناني. وفي 11 آذار، أعلن القائد السنّي في منطقة بيروت نفسه حاكماً للبنان وطالب بالاستقالة الفورية للرئيس اللبناني سليمان فرنجية. وانفجر على الفور قتال عنيف بين المسلمين والمسيحيين أساساً وكذلك بين طوائف إسلامية مختلفة وانتشر الاضطراب العام عندما أوقفت قوات ثورية إسلامية مختلطة، متقدمة نحو قصر الرئيس المسيحي، من قبل وحدات من قبل قوات الصاعقة تابعة لجيش التحرير الفلسطيني (والتي تتبع منظمة التحرير، كما سبق وأشرنا. والتي كانت في الواقع مساعدة للجيش السوري).

عندمـا لم توفق وحدات «جيش التحرير» في مهمتها، بـدأت سورية تفكر في التدخل المكشوف ـ وهو أمـر متوقع كان يهمنا منذ بداية الأزمة. وفي 4 آذار، أعلـم رئيس أركان الجيش السوري الشهابي سفيرنا ريتشـارد مورفي أنه لا يستطيع حل الوضع اللبناني بدون تدخـل القوات السورية النظامية واحتلال مواقع لضمـان أمـن وهدوء الحدود اللبنانية. وحـذر مورفي الشهابي من أن إسرائيل لن تقبـل أبداً بهذا. أجاب الشهابـي: «قـد لا تقبل ولكن الإسرائيليين ربما يفهمون بمُوافقـة أو عدم موافقة رسمية، أنها مجرد قوات حفـظ سلام» ـ بعبـارة أخرى لن تكون طبيعتها تمثل تهديداً استراتيجيـاً لإسرائيل. وعندما طلب مورفي تفصيلاً مدروساً لهذا الموضوع الحساس، تملّص الشهابي. وأفاد مورفي «إنه لم يكن يقترح هذا ولا كان يقترح أن أنقل ما يفكر فيه إلى واشنطن، ولكن كان يعرض الوضع اللبناني، فهل من بديل آخر ؟».

كانـت محادثـة غريبة. فقـد كان الشهابي يعلم أن آراءه لا بد أن تُنقل إلـى واشنطن، فماذا يطلب من مورفـي أكثـر من ذلك؟ هل كان الشهابي ـ الذي كنا نعتبره معتدلاً ـ يُعلمنا، أم يطلب رأينا؟ هل كان يسعى إلـى العمـل في لبنـان، ضمن نطاق مصالـح إسرائيل، عبر وساطـة أمريكية؟ لما كان مـن المستحيل أن

يتصـرف الشهابـي من تلقـاء نفسه، فالاحتمال هـو أن الأسـد كان يختبر ردود أفعالنا عـن طريق رفيقه الموثـوق. كانت المحادثة بالتأكيد تُظهر دورنا المركزي في المنطقة. فنحن فقط كنا على اتصال بجميع الفرقاء.

مبـادرة الشهابـي وضعتنا فـي موقف محرج. وكما قلت فـي اجتماع رسمي فـي 28 آذار، فإن النتيجة الأفضـل بالنسبـة لنا هي «الحل السوري» الذي تحقق في 22 ك2 بدون وجـود قوات سورية. هذه الاتفاقية حافظـت علـى التوازن بين المجموعـات الدينية، المائل قليلاً نحو المسيحييـن، كما حافظت على الإطار السياسـي والاجتماعي التقليدي للبنان. أيدناه لأنه كان الأمل الوحيد لإبعاد لبنان عن اشتعال حريق هائل في الشرق الأوسط.

وشجعـت سوريـة هذا الاتفاق لأنه يحول دون تقسيم لبنان ما بين المسلمين والمسيحيين وهو ما يعني ثلاثة مساوئ بالنسبة للأسد: سيخلق دولة أخرى في المنطقة ستعتمد مضطرة على الغرب، وسيخلق سابقة بالنسبـة للمجموعات العرقية والدينية الأخرى كي تنفصل عن الدول القائمة فيها، والجزء الإسلامي من الأكثـر احتمـالاً أن يصبح تحت هيمنة فصائل مرتبطة بدول عربية متطرفة. أما بالنسبة لنا، فقد كنا في قلق من التقسيم لأنه سيوحد العالم العربي ضدنا ولا يمكن أن يستقر بدون تدخل عسكري واسع.

المفارقـة أن تسويـة 22 ك2 كانت مهتزة ما لـم تتعزز بقوات عسكرية خارجيـة، التي إذا كانت قوات سوريـة فإنها سترفع من هيمنتها، وتتضمن خطـر التدخل الإسرائيلي. وإذا كانت قوة عربية كما اقترحت مصـر فإنهـا ستغيظ «المنظمـة وسورية» (ربمـا إسرائيل) وسيرفضانهـا بالتأكيد. توجهـت إلى زعماء الكونغرس في 7 نيسان بالكلمة التالية:

> في هذه الأزمة نواجه تناقضاً في الأدوار، مع سورية التي تؤيد المسيحيين وتقاتل «منظمة التحريـر». كمـا أن سوريـة تساند الجنـاح المعتدل فـي «المنظمة» في حيـن أنها تقطع الإمـدادات عن اليساريين التابعين لجنبلاط وتحمي المناطـق المسيحية. المصريون، من جهة أخرى، يؤيدون المتطرفين بسبب كراهيتهم للسوريين. الولايات المتحدة تفضل النتيجـة السياسية نفسها التي توصل إليها السوريـون، وكذلك يفعل الإسرائيليون. ولكن الولايات المتحدة وإسرائيل لاتريدان تدخل القوات السورية. التناقض هو أنه بدون تدخل القـوات السورية، فإن «منظمة التحرير» قد تربح. إن سياستنا هي الحيلولة دون التدخل السوري مع تأييد جهود الوساطة السياسية التي يقومون بها وفقاً لخطوط تسوية 22 ك2
>
> لم يكن ثمة إمكانية لتدخل القوات الأمريكية، رغم أن السيناتور هنري جاكسون لامنا في بدايـة شهر نيسان، على عـدم إرسال قوات البحرية (المارينز)، كما فعل أيزنهاور عام 1958. بعد أقل من سنة على خروجنا من سايغون، وثلاثة أشهر بعد أن صوّت الكونغرس

على خروجنا من أنغولا، فإن الشعب الأمريكي لن يؤيد الجهد المطلوب الكبير والمستمر. وباستثناء تهجم جاكسون الوحيد، فإن الفكرة لم تلق إلا تأييداً ضئيلاً في الانتخابات التمهيدية أو الحملة الانتخابية. كما لم يؤيدها أي عضو من أعضاء «مجلس الأمن القومي». لأنه كان من الصعب استيعاب مهمة عسكرية ذات معنى. ولما كنا قد حشرنا أنفسنا بين الفرقاء المتحاربين، فقد كان تجنب وقوع خسائر فادحة غير ممكن. وقد قلت في 22 نيسان في «مجموعة واشنطن الخاصة للعمل» (WASG):

إذا تحركت قواتنا الأمريكية كعازل للتفرقة بين القوى المتخاصمة فلسوف تورطنا مع السوريين. عندئذ قد يتحرك السوريون بكثافة تجاه لبنان. وعندئذ قد نواجه حماية للمنظمة من قبل السوريين.

ما إن نتحرك لن يكون من السهل الخروج... ينبغي أن نسأل أنفسنا ما هي المصالح القومية التي تهمنا هناك والتي تقودنا إلى أن نستخدم قواتنا.

لقد كانت أهدافنا في لبنان أكثر تعقيداً بكثير من مجرد تفريق القوى المتحاربة والمتعارضة. إنه الدرس الذي كان على حكومة ريغان أن تتعلمه بثمن باهظ في الفترة 1983 – 1984 عندما أظهرت عدم رغبتها في دفع ثمن الإبقاء على قوة أصغر بكثير من أجل أهداف محدودة أكثر من أجل أهداف داخلية أمريكية غير خطيرة الشأن.

في 30 آذار، وبناء على توصية مني، استدعى الرئيس فورد موظف وزارة الخارجية البارز دين براون كي يعمل مبعوثاً خاصاً إلى لبنان. وكان براون الذي تقاعد مؤخراً قد عمل بهمة ونشاط سفيراً أثناء الأيام العصيبة في أيلول 1970 في الأردن عندما قامت «منظمة التحرير» بغزو انطلاقاً من سورية هدد استمرار بقاء المملكة الهاشمية (10).

وفي اجتماع عمل في 30 آذار أعطيت براون التعليمات التالية :

ما نريده على وجه الدقة هو أولاً تقويماً دقيقاً للوضع. ونريد ثانياً، أن نساعد على وقف إطلاق النار. وثالثاً نريد أن نرى نتيجة تشبه الحل السوري في نهاية ك2. ونريد، رابعاً، أن نكون على اتصال ما مع «منظمة التحرير... لقد حاولنا أن نفرق ما بين جنبلاط» والمنظمة.

يجب أن نجعلهم يفهمون أن «المنظمة» ستكون الضحية الأولى لتدخل إسرائيلي وخامساً، نحن لا نستطيع أن نقصم ظهر المسيحيين. ينبغي ألا ينهاروا. وسادساً علينا أن نبقي السوريين خارجاً. وسابعاً يجب أن يعلم السوريين أننا نعمل كل ما في وسعنا لإيجاد حل يوافقهم... أما مع تأييد المسيحيين. وكما تعلم فأنا لا أفعل أي شيء يحول دون مساعدة الإسرائيليين للمسيحيين. فكلما كانوا أقوى كان ذلك أفضل.

obeikandl.com

الإشـارة إلى «منظمة التحرير» كانت تتطلب بعض التفسير. لقد اتفقنا مع الإسرائيليين على ألا يتفاوضوا مع «المنظمة» حتى تقبل الأخيرة بحق إسرائيل في الوجود وتتخلى عن الإرهـاب. ولكننا كنا نعتبر لبنـان حالة خاصة. في متابعتنا لهذه الاستراتيجية اتفقنا مع إسرائيـل على عزل الفصيـل اللبناني المتطرف تحت قيادة جنبـلاط من أجل أن نحول دون ظهـور دولة متطرفة أخـرى، مرتبطة ربما مع العراق وليبيا ومـع الاتحاد السوفييتي بالتأكيـد، علـى طول الحدود الشمالية لإسرائيل. كنا نلهو بفكـرة المناقشة ما بين لبنان والمنظمـة. كانـت التعليمـات الموجهة لبراون هـي الحصول على موافقـة واشنطن قبل التعهد بأي حوار. وفي اجتماع «مجلس الأمن القومي» في 7 نيسان قلت لفورد:

من أجل الوصول إلى حل يتوجب أن نحصل على تفويض منك للتعامل مع منظمة التحرير ياسيـادة الرئيس. لـن يكون هناك تغيير فـي موقفنا من «المنظمة» تجـاه قضية الشرق الأوسـط، ولكـن ليس لدينا التزام تجـاه إسرائيل بعدم التحدث إلـى «المنظمة» لاسيما حول الوضع في لبنان.

أثنـاء المحادثات لم نطلب قط صلاحية حتى عند إخـراج الأمريكيين من المناطق التي تسيطـر عليهـا «منظمة التحريـر» في بيروت. ففي تلـك العملية كانت مصـر تقوم بدور الوسيـط مع «المنظمة» فـي المسائل السياسية، وكان بعض موظفـي الأمن من المستوى المنخفض يتصلون «بالمنظمة» وموظفيها لتسهيل بعض جوانب الإخلاء. ولكن لم يكن ثمة تبادل علاقات جوهري.

العلاقـة مع الطائفـة المسيحية كانت معقـدة بدرجة مساوية. فقد كنـا نريد بوضوح أن نشدّ من أزرها. ولكن نقل الأسلحة إليها سوف يقلب جميع الدول الإسلامية في المنطقة ضدنـا ـ وكانت هـذه واحدة من النقاط القليلة المتفق عليها مـع سورية ومصر والعربية السعوديـة. وبدون علاقات تعاون مع هذه الدول فإن عملية السلام برمتها ستنهار. ولهذا شجعنا إسرائيل على أن تمد المسيحيين بالأسلحة حتى لو كانت سورية تعمل ـ على الأقل مؤقتاً ـ كحامية لهم.

بهذا المعنى فإن الوضع المعقد أساساً في الشرق الأوسط قد وصل إلى درجة من التعقيد جعـل مـن الصعوبة بمـكان تحديد اللاعبيـن، بدرجة أقـل بكثير مـن الأدوار التي كانوا يلعبونها في أية لحظة. كان لإسرائيل بعض المصالح الموازية مع سورية في منع سيطرة المتطرفين ـ ولا سيما جنبلاط ومنظمة التحرير ـ والمحافظة على الموارنة كقوة موازية لهمـا. ولكن إذا سعى أحدهمـا إلى ما هو أبعد من هذه المصالـح بوسائل عسكرية فمن

المحتمـل أن يسعى الآخر إلى مواجهتها. لم تكن سوريـة ولا إسرائيل مستعدتين لحرب: سوريـة لأنهـا ضعيفة جـداً، وإسرائيل لأنهـا لم تشف بعـد من صدمة الحـرب الأخيرة قبـل سنتيـن. ولكنهما قد يتجها نحـو الحرب بسبب سوء تفاهم. أمـا مصر فقد ساندت المتطرفين ولكنها ساندتهم بالدرجة الأولى لمواجهة سورية في أهداف السياسة العربية كافـة، ولكنها لم تكن بالتأكيد ترغب في مزيد مـن التوتر. أما المملكة العربية السعودية فقـد ساندت سورية عموماً كيلا تدمر» المنظمة». وكان الاتحاد السوفييتي يتابع سياسته العربية كصراع بين حليفين ـ سورية والمنظمة ـ والعمل على عدم تدخل أطراف أخرى، وإن كانـت موسكو في النهاية قد وقفت ضد سورية في دعمها للمتطرفين. وأرادت فرنسا أن تحافـظ على شـيء من دورها التاريخي فـي لبنان، ولكنها كانت مشتتـة بين تأييدها التقليدي للموارنة ورغبتها في الاستمرار بدورها في العالم العربي.

تقويمنـا في إدارة هذا الاضطراب الكبير أن أياً مـن الطرفين يستطيع أن يحقق أهدافه بـدون دعمنا فـي الحيلولة دون تدخل إسرائيل في لبنـان. إسرائيل كانت تريدنا أن نكبح سوريـة، وسوريـة كانت تسعى إلى كسب تأييدنا في منع إسرائيل من التحرك تجاه لبنان. وكانـت مصـر تعلم أننا مفتاح التقـدم السريع عندما تبدأ عمليـة السلام. وكان الاتحاد السوفييتـي مشغولاً ومقيداً بمتاعبه. وظهرنا نحن بمظهـر عنصر التوازن الذي لا يمكن الاستغناء عنه في عجلة الدبلوماسية في لبنان لأن لكل طرف مصلحة في المحافظة على علاقات طيبة معنا.[1]

لم تكن هذه مهمة منفردة ذات نهاية منظورة في الذهن، بل كانت بحاجة إلى مراجعة كل يوم. وفي الوقت نفسه كنا ندير شؤوننا الدبلوماسية في أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقية التي تحدثنا عنها في فصول سابقة. لقد كانت أشبه برسم كاريكاتوري لدبلوماسية توازن القوى، ومع هذا لم يكن ثمة بديل عنها.

تَجسد دورنا المركزي في اتصالنا الأول مع السادات بعد أن فاتحنا الشهابي في 14 آذار، وفي 15 آذار أصدرتُ تعليمات لمورفي لمقابلة الأسد:

سلـه ماذا يريـد، وإذا كنا نتفق معـه، فلسوف نفعـل كل ما في وسعنـا لمساعدته. ولكن حذّره أنه ما سيفعله ينبغي ألا يكون باستخدام القوات السورية النظامية. في هذه الحالة، سنضمن أن إسرائيل لن تتدخل.

فـي اليوم نفسه أعلمت مساعد الأمين العام أثرتون بإعـلام السفير الإسرائيلي أنه ليس لدينـا مـا يؤكد تحرك القـوات السورية باتجـاه لبنان وتحذيـره من العمل استنـاداً إلى

معلومـات تخمينيـة : «يجب أن نُعلم مسبقـاً». وحضّيت دينيتز علـى أن «يخبر رابين بأن يتصرف بحذر شديد».

فـي 18 آذار استقبـل الأسـد مورفي وذكـره أن الرئيس المسيحي فرنجيـة طلب التدخل السـوري و «نحـن لـن نكون عربـاً إذا لم نقدم يـد المساعـدة لإخوتنا». وأكـد الأسد أن هـدف سوريـة الوحيد هـو حفظ السـلام وحض جميـع الأطـراف «على وقـف القتال، والتحـاور وإيجاد قاسم مشتـرك سياسي... فالعنف لن يحل المشكلـة». وستتابع سورية جهـود الوسـاطة القائمة على اتفاق ك2. ومـع أن الأسد أشار إلى حساسية أمن الحدود الشماليـة لإسرائيل، إلا أنـه أضاف «لا أستطيع أن أضمن شيئاً» ـــ بمعنى أنه لا يريد أن يُتهـم بأنـه يطمئن بلداً لا يعترف بـه مع أن هذا على وجه الدقة مـا كان يفعله. وأمِل أن تحضّ الولايـات المتحدة إسرائيل علـى أن تفهم «أنه لا شأن لها بهـذه المسألة العربية الداخليـة». وبعد اللقـاء هتف الأسد، بطريقة ودية غير معتـادة، إلى مورفي ليقول له إنه يأمـل أن تشارك الولايات المتحدة في أية أفكار جديدة لديها للمساعدة في حل المشكلة اللبنانية.

فـي واشنطـن أبلغنـي أثرتون في اليـوم نفسه أن عرفـات يتفاوض مع مصـر لمساعدته ومساعدة القوات الثورية الإسلامية ضد سورية وأن مصر كانت ميالة للاستجابة.

جميـع هذه المنـاورة الدبلوماسية كانت تترافق بالقتال العنيف بيـن الفصائل اللبنانية. وكان أحـد نماذج هـذه الفوضى أن طائرة عسكرية سورية كانت تقـلّ يوم 19 آذار رئيس الوزراء اللبناني رشيـد كرامة وبعض الزعماء اللبنانيين الآخرين قد أسقطت فوق مطار بيروت بعد أن أقلعت متجهة إلى دمشق.

كان هناك مقاتلون مناصرون للرئيس فرنجية يقصفون مواقع درزية في مواقع شمالي قصر الرئاسة اللبنانيـة[11]. واضطـرت الجامعة الأمريكية في بيروت إإلى إغلاق أبوابها في 21 آذار [12]. كما أُخلي مقرا جريدة النهار ومكاتب وكالة رويتر في 17 آذار [13] وكان «الكتائب» والمسلمون يتقاتلون حول فندق «هوليداي إن» في بيروت. وفي 22 آذار التقى كرامة بفرنجية، الذي رفض أن يستقيل. واجتمع مجلس الوزراء اللبناني في جلسة طارئة للنظر في اقتراح يقضي بإجراء تعديل لانتخاب فوري لرئيس جديد للجمهورية [15] (*)

أوجد الغضب من التدخل السوري حالة كلاسيكية من حرب عصيبة. وفي 25 آذار هتف لي نائب وزير الدفاع وليام كليمينتس ليعلمني أن فرقة مدرعة سورية تتحرك باتجاه لبنان. وبعد خمسة عشرة دقيقة عاد

(❖) كمـا أشرنـا فيما بعد، فإن مسألة التغيير الدستوري بحيث يسمح بانتخاب رئيس جديد قد حُلت في نيسان. وانتخب إلياس سركيس على وجه السرعة رئيساً للبنان في 8 أيار (بعد مناورات كثيرة من جانب فرنجية) كانت سورية تؤيده. ولكنه لم يستلم السلطة إلا في 32 أيلول.

فأكـد لي ذلـك. أعلمت كلاً من دينيتز والسفير البريطاني بيتر رامسبوثـام، الذي أخبرني أن المخابرات البريطانيـة لـم تُعلمه بأي نشاط من هذا القبيل. وبعد بضع ساعـات اضطررت إلى الاتصال برامسبوثام ثانيـة: «مخابراتنـا لا تعرف الفرق بين دمشق والقاهرة. اللواء المسلح جاء من القاهرة وليس من دمشق» (ومن الواضح أنه لم يكن متجهاً إلى لبنان).

فـي 23 آذار أجاب رابيـن على استفساراتي. حول وقـوع تدخل سوري فإن القـوات الاسرائيلية سوف تحتل «بهدوء» مواقع استراتيجية في جنوب لبنان. وفي اليوم التالي حددت مذكرة إسرائيلية نوع الأسلحة والقـوات التـي ستعتبرها الحكومة (الإسرائيليـة) تدخلاً سورياً غير مقبول. وذكـر على وجه الخصوص إدخـال قـوات مشـاة على مستوى لواء (بمن في ذلـك تلك القوات الموجودة في لبنـان من قبل) مما كان يعني بالطبع أن درجة معينة من التدخل السوري المعتدل كانت مقبولة. وهذا ما أكدته المذكرة التي الحد الأقصـى للتدخل السـوري المسموح به. ولن تتساهـل إسرائيل تجاه تحرك قوات سوريـة وراء مسافة 10 كيلـو مترات جنوب محور دمشق ـ بيروت. وهذا ما عـرف باسم الخط الأحمر، والذي حدد عملياً التوافق الإسرائيلي والسوري حول مناطق النفوذ، والتي كانت مفهومة ضمناً، وما تزال سارية.

إنهـا لحظـة دقيقة تأخذ مجراها حيـث نجد بلدين ما يـزالان عملياً في حالة حـرب، يُحدد أحدهما للآخـر مخاطره والتزاماته وسط الفراغ الذي ظهر فجأة فـي لبنان. ولما كان الترتيب كان يعكس تفاهماً ضمنياً يتطلب عنصراً من الإنكار، فقد أصدرت أنا ودينينتز بيانين رسميين يتضمنان هذا المعنى بصورة غير رسمية، وذلك لتجنب سوء فهم التفاهمات الضمنية أو أن تعتبر بمثابة التزام قانوني وبالتالي تتحول إلى قضية سياسية. واستفاد كل جانب من هذه المناسبة في إعادة التأكيد على اهتماماته الرئيسية. رفض التدخل السوري من حيث المبدأ أو قبول شكلياته عملياً. وحول هذا قال دينينتز:

> أود أن أؤكـد أن جميع المعلومات... هي جواب لأسئلـة طرحت ولكنها لا تعني بأية وسيلة قبول إسرائيل لأي تغلغل سوري. إن موقفنا في الواقع (معارضة التدخل من حيث المبدأ) يبقى سارياً كما كان في الماضي ويتكرر اليوم.
>
> عكـس جوابي الإجراء. قبل إمـلاء أي خضوع في رد الفعل الإسرائيلـي، لا بد، أن يسبقه مشـاورة حتـى في حالة تدخل سـوري. وتلقي الإجابـات الإسرائيليـة لا يتضمن خضوعاً أمريكيـاً لتحـرك إسرائيلـي، أو أنـه لن يكـون هناك مناقشـة مسبقة بيننـا قبل تحرك إسرائيلي إذا كان هناك تحرك سوري».
>
> كان التبـادل ذا أسلـوب خاص لأن الكوابـح والأهـداف متوازنـة تقاس وفـق أساليـب الدبلوماسيـة التقليديـة، وليس عـن طريق المحامين ووضع الالتزامـات الرسمية، كما شرحت لمجلس الأمن القومي في 7 نيسان:

نحـن نعرف أن السوريين حريصون إزاء الإسرائيليين لذا فإن فكرة هجوم سوري ينبغي أن تُدرس بعنايـة. نحن نبالغ في تطلع إسرائيل إلى دخول لبنان، ولكن سورية لا تفكر في أن تشـن حربـاً إذا كانت تستطيـع أن تتجنبها، إلا إذا دخلوا إلـى عمق لبنان وفعلت ذلك إسرائيـل. كما نعلـم أيضاً أن السوفييـت لا يتطلعون لى الحرب. إنهـم يشجعون الحزب الشيوعـي اللبنانـي، وعناصر محلية أخـرى، بما في ذلك منظمة التحريـر، ولكنهم قبل كل شـيء، عامل كبـح. فالحزب الشيوعي اللبنانـي مساعد، ولكن السوفييـت يبدو أنهم يشـاورون السوريين ضد التحرك. إنهم يريـدون كعكتهم وأن يأكلوها أيضاً. السوفييت لا يتطلعون إلى حدوث اضطرابات، ولكنهم سيضطرون للتدخل إذا ما خسروا رصيدهم في الشرق الأوسط، إذا ما نشبت حرب أخرى.

حتـى نهاية الربيع ظل الموقف مستمراً على هذا الشـكل. القوات السورية تتقدم إلى الأمام بتسامـح مـن إسرائيل، فـي كل خطوة تقريبـاً بطلب من الزعمـاء المسيحييـن، سواء من المحلييـن أم مـن الحكومة المركزية غالبـاً. كانت إسرائيل تتذمر عنـد كل تحرك، ولكنها تنصاع طالما أن سورية لم تؤسس وجوداً عسكرياً ضخماً وبقيت تعي جيداً الخط الأحمر.

كان هنـاك تـوازن معقد. فسوريـة تسيطر علـى وادي البقاع في حيـن أن المدن لم تكن لأي طـرف، مُقسمة ما بين جنبلاط، و«المنظمة» والمسيحيين، والسوريين، ولا سيما في بيـروت حيـث كل منطقة تختلف عن الأخرى. في لبنان واجهت سورية عكس الوضع الذي جابهنـاه في فيتنـام. فهناك كنا نسيطر علـى المدن، وكان الريف هو الـذي يقاتل. وفي لبنـان كانـت سورية تسيطر على معظـم الريف في حين أن الحـرب الأهلية كانت تجري فـي المدن. ورغـم قواتها المتفوقة لم تكن سورية قادرة على السيطرة الكاملة على لبنان كلـه كمـا كنا نفعل في فيتنام ـ مـع أن سورية أظهرت تماسكاً أكبـر. ولكن حرية الحركة أصبحـت صعبة حين أرسلت جامعة الـدول العربية قوة مؤلفة من سودانيين، وسعوديين، وليبييـن للقيـام ببعض أعمال الشرطة فـي بيروت لم يكن انتشـاراً عسكرياً واسعاً يبعث علـى الرعب، ولكنـه كان يرمز لى وضع قيود على السياسة السورية لا من جانب إسرائيل فحسب، بل أيضاً من جانب أشقائها العرب.

كانـت العمليـة السياسية تسير بشكل متقطـع ولكن غير متعذر. وفـي العاشر من نيسان صادقـت «الجمعية الوطنية اللبنانية» على تعديل دستـوري يسمح بتغيير مبكر للرئاسة. وفـي 8 أيار اختيـر إلياس سركيس، المرشـح السوري، لمنصب الرئيـس. ولكن لما كان فرنجية قد رفض الاستقالة فإن سركيس لم يستلم منصبه إلا في 23 أيلول.

بعـد ذلـك خفّ القتال تدريجياً، وإن لم يصـل إلى حد الهدنة، وكثيراً مـا كان يتصاعد فجأة. وبقيت بيروت مقسمة إلى مناطق محصّنة.

كان أحـد أشد الأحداث إيلامـاً بالنسبة إلى الولايات المتحدة اغتيال السفيـر فرانسيس إي. ميلوي، مـع مستشـاره الاقتصادي روبـرت أو. ورنغ فـي 16 حزيران. وكان قـد وصل إلى بيـروت ليحل محل دين بـراون قبـل بضعة أسابيع، وقُتل وهو في طريقه إلى أول لقـاء رسمي له. وكنت قد طلبت من ميلوي عندما استدعاه سركيس. كان مكتب سركيس يقع في المنطقة المسيحية من بيروت، في حين كانت تقع السفارة فـي المنطقة الإسلامية. ووفقاً للتقليـد المتبع توقفت سيارة الحراسة المرافقة لسيارة السفير عند نقطة التفتيش مغادرة المنطقة الإسلامية، وكان على المسيحيين أن يتولوا الحراسة في الجانب الآخر. اختطف ميلـوي في المنطقـة المحايدة قبل أن يدخل المنطقة المسيحية من قبل جماعـة فلسطينية إرهابية. وقد أُعدم بعد ذلك بوقت قصير.

فجعني موت ميلوي. لا بسبب أنني أرسلته في مهمة كلفته حياته فحسب، بل لأنني شعرت أنني مسؤول شخصيـاً عـن اغتياله في لبنان في المقام الأول. وكان ميلوي قـد لفت نظري قبل أشهر قليلة عندما زرت غواتيمـالا فـي شبـاط 1976 بعد هزة أرضية عنيفة. حينـذاك أظهر ميلوي شجاعة هائلـة بأن يأخذ على مسؤوليتـه الخاصـة رفض البرنامج الـذي وضعه بعض مساعدي لأنه وجده غيـر مناسب للوضع. وعندما طالبـت أسرة دين بـراون بعد بضعة أسابيع بأن السفير قد أمضى الوقت المحدد لمهمته في لبنان (وكان قـد ترك الاستقالة وعاد إلـى الخدمة) فكرت على الفور في ميلوي: وقلت لغسـان تويني، السفير اللبناني بعد ذلك:

> كان (ميلـوي) متفوقاً في حـل المشكلات في غواتيمالا.. كان رجـلاً طيباً لم أكن أحبه حتـى رأيته فـي غواتيمالا بعد الهزة الأرضيـة الكبيرة هناك كانت أزمـة. خالف كل أمر أرسلتـه إليه. ولكنه أظهر أنه علـى صواب وأنا كنت على خطأ. الله يعلم أنه لا يوجد كثير من السفراء ذوي التأثير الصائب. أشعر بمسؤولية عميقة لأنني أرسلته إلى لبنان.

أثـار اغتيال ميلـوي أزمة بالنسبة للأمريكيين الذين بقوا في بيـروت. فعرضنا إخلاءهم، وهي عملية أثـارت جـدلاً حول أفضل وسيلة لتحقيـق ذلك. أسهل طريقة لإخراجهم من لبنـان كانت عن طريق الجو، ولكن سورية حذرتنا من أن المطار المحاط بمعسكرات للاجئين الفلسطينيين ليس آمناً، إذ يكفي صاروخ واحـد لقتـل مجموعة مـن الراحلين. الطريق الأكثر أمنـاً كان البحر، ولكن منطقـة الميناء كانت تسيطر عليها «منظمة التحرير»، وهذا ما جعلنا نفضل ألا نسلكه. من ناحية أخرى فإن الطريق البري إلى دمشق كانت تسيطر عليه عدة ميليشيات بحيث لا يمكن ضمان حياة الأمريكيين إلا بانتشار واسع لقوات عسكرية أمريكية، في النهاية اخترنا الإجلاء عن طريق البحر على مرحلتين.

فـي هـذا الوقت كان انقلاب الجبهات المذهـل كاملاً تقريباً. فسورية التي كانـت الراعي الأول لمشاركة «منظمـة التحريـر الفلسطينية» في عملية السلام باتت تقاتـل «المنظمة» على الأرض في لبنان، أو تقف على الحيـاد حين كانت الميليشيـات المسيحية تحاصر معسكراتها. ومن أجل أن تعيـق سورية باعتبارهل خصماً في العالم العربي، فإن مصر صديقتنا المقربة جداً، كانت تشجع المجموعات المتطرفة في لبنان التي كانت تعارض مصر بوصفها شريكتنا في دبلوماسية الشرق الأوسط. ولهذا فإن الاتحاد السوفييتي الذي كان صديق سوريـة المعتمد طلب أن تمارس سورية الضغط العسكري والسياسي ضد الفلسطينيين. وفي 20 تموز نشرت صحيفة «لوموند» الفرنسية رسالة زعمت أن بريجينيف كتبها ووزعت إلى جماعة جنبلاط و «المنظمة» (وهو ما لم تنفه موسكو قط). في هذه الرسالة حضّ بريجينيف الأسد على وقف العمليات «ضد المقاومة والحركة الوطنيـة اللبنانيـة» وأرفق نصيحته بتهديد: «إن صداقة بلدنا نحوكم أكيدة ومستقرة. وما لم تتصرف سورية بالطريقـة نفسها فستسبب انشقاقاً في العلاقات بين بلدينا». وأكد الملك حسين هذه الاتصالات السوفييتية بالأسد وأضاف أن السوفييت هددوا بإلغاء تسليم قطع الغيار للقوات المسلحة السورية.

هـذا الوضع غير الجيد في العلاقـات السوفييتية ـ السورية كان ظاهراً في خطبة طويلة للأسد في 20 تموز. قال إن سورية لن تخضع لأي إنذار، ومدح مهمة السفير براون، وأشار إلى أن أي جهد خارجي لإنهاء القتـال سيكـون موضع ترحيب «حتـى ولو جاء من أمريـكا». وطوال عرض استمر ثـلاث ساعات لم يذكر الأسـد الاتحـاد السوفييتي مطلقاً. لم يترك مجـالاً للشك أين كان يقف بالنسبـة للفلسطينيين في لبنان: سوريـة لا يمكن أن «تخضع لأي طلب مـن جانب الفلسطينيين للانسحاب من لبنان» ـ واللبنانيون وحدهم يستطيعون ذلك (وكان عرضاً سليماً منذ دعا الرئيس المسيحي أصلاً سورية للتدخل).

انعكسـت درجة تغييـر الوضع في لبنـان للمشهد الدولي فـي تعليماتي لمورفي حـول المباحثات التي سيجريهـا مـع الأسد : «الرسالة هي أننا نؤيد سياسة خارجيـة مستقلة، ولهذا السبب لا نريد أن نحرجه»، وطلب من مورفي التعبير» الأمل إذا شعر بهذا «سياسة خارجية مستقلة» كان مهدداً في كل وقت، من شأنه أن يخبـر الولايـات المتحدة بذلك بحيث نستطيـع أن نتفحص معاً ما هي الخطـوات التي يمكن اتخاذها لتخفيف التهديد... نحن مستعدون لتقديم المساعدة.

مـن أجل أن أؤكد جديتنا في نظرتنا إلـى سورية وآرائها، فوضت مورفي أن يُعلم الأسد عما نعلمه عن الشحنـات السوفييتيـة إلـى المنظمة: «قل له ما هي الكميـات التي تصل مباشرة، وتقديـراً للكميات التي تصـل عن طريق ليبيـا. والاتصالات. لا تذكر مصر». حدثت ثورة دبلوماسيـة عندما قدم وزير الخارجية الأمريكية لسورية مساعدة دبلوماسية ضد روسيا ومعلومات استخبارية تتعلق بلبنان.

في 7 آب، أعرب الأسد عن ترحيبه وعن التقاء المصالح مع الولايات المتحدة فيما يتعلق بهزيمة القوى المتطرفة ليس في لبنان فحسب، بل وفي الشرق الأوسط كله. وقد أوضح مورفي تعليقات الأسد كما يلي:

أصبحَ لبنان هدفاً لعناصر (غير محددة) في العالم العربي والتي يمكن أن تقتلع جذور المجتمع وتُحدِثَ ثورة. الطوائف اللبنانية تستغل بمهارة التيار في الرأي العام المحلي التي كانت تسعى إلى تغيير لبنان القديم. وعلى الحكومة الأمريكية والدول المعنية الأخرى المهتمة بإحداث تطور سلمي في المنطقة ينبغي أن تعي هذا الخطر في الأزمة اللبنانية. إنها ليست مجرد مسألة المحافظة على لبنان من أن يصبح الشرارة لحريق هائل (في الإطار العربي ـ الإسرائيلي مثلاً) أو أن تحدث فيه حرب أهلية يدمر الافتقار إلى حل لها جهود السلام في المستقبل. المشكلة أساسية أكثر من ذلك، إنها تنسف مستقبل تطور العالم العربي. إن العربية السعودية والدول الخليجية إذا لم نذكر أكثر من ذلك، لها مصلحة حيوية في ألا تنجح تلك العناصر الكامنة في الثورة.

وافقنا على كثير من النقاط التي أوردها الأسد، كبيان نظري، مع أن تفسيراتنا قد تختلف مع تطور المسألة اللبنانية ومع دبلوماسية الشرق لأوسط ككل بعد انتخاباتنا الرئاسية. ولكن طالما أن الأسد في خصام مع السوفييت ومنهمك في لبنان، فإن معارضته لمبادرتنا المخططة سوف تتضاءل بشدة.

في صيف عام 1976 كنا قد تجاوزنا أسوأ مخاطر الانفجار اللبناني ووصلنا إلى مرحلة متقدمة لخلق ظروف لمبادرة سلام جديدة في الشرق الأوسط. لم نتجاوز اهتمامنا الأولى بالحريق الهائل العام فحسب، بل إن التحالف المتطرف ضد عملية السلام كان في تراجع. إذ كانت سورية منشغلة في لبنان، ومنظمة التحرير منشغلة في سورية. وكانت الفصائل المتطرفة في لبنان تحت ضغط السوريين والمسيحيين، ولكن سورية لم تكن قوية كفاية ـ أو خائفة جداً من رد فعل إسرائيل ـ بحيث تسيطر على لبنان تماماً وضمه إلى منطقتها الاستراتيجية. كما خسر المسيحيون سيطرتهم التقليدية نتيجة لتغير التوازن السكاني وأعمال مناوئيهم. وعلى أية حال، فقد ظلوا، بفضل التسلح الإسرائيلي وتشجيع واشنطن، أمام انتصار الراديكاليين أو الهيمنة السورية الكاملة.

لم تفرز سياستنا جميع هذه النتائج، ولكنها لم تحدث في غيابنا. ولكن لو كنا وقفنا على الحياد لكانت المعايرة الدقيقة بين سورية وإسرائيل قد انهارت وانتهت إلى حرب ولو أننا أفزعنا الأسد من حين لى آخر كما كان يحضنّا فهمي. وهو ما سيدفع إسرائيل إلى التهديد ـ لأدى الأمر إلى انتصار منظمة التحرير المتطرفة ثم إلى تدخل سوري أو إسرائيلي في ظل ظروف بالغة الخطورة. كانت سورية وإسرائيل اللاعبين الأكبر في ثورة لبنان، فالدبلوماسية لا تستطيع أن تمحو الجغرافيا والواقع الجيوسياسي.

التوازن الدقيق الذي تجلى في عام 1976 حفظ آفاق سلام شامل في المنطقة. وللتأكيد، فإن نظام التعايش التاريخي بين الأديان الذي ميّز لبنان لفترة تشكل معظم القرن كان ضحية هذه الأحداث. ولم يكن يعود هذا كثيراً إلى التنافس بين القوى الخارجية بقدر ما كان يعود إلى تغير التوازن السكاني، وقبل كل شيء إلى الخليط المتفجر الذي تجمّع على أرض لبنان ـ العنصر الجديد الأساسي لذلك التوازن كان

منظمــة التحرير. معظم القوى الخارجية كانت معنيــة أساساً بالحيلولة دون الاضطرابات في لبنان. وفي نهاية ذلك الصيف كان شعب لبنان أفضل حالاً من بداية العام بسبب أن العنف الإجرامي للحرب الأهلية قد تراجع وبدأ يتشكل نوع من الحكم المدني استمر أربع سنوات إلى أن حاولت إسرائيل أن تعمل على فرض وضع يسيطر فيه الموارنة مع بداية أو خريف 1980.

العودة إلى عملية السلام

مــا إن وافــق السادات على إنهــاء حالة الحرب في شهــر آذار، أُعطيت تعليمات إلــى السفير ريتشارد مورفي في دمشق، وتوماس بيكرينغ في الأردن بإبلاغ هذا إلى الحكومات المُضيفة. ولكن لما كان هذا قد ترافق مع تصاعد المعرضة الشديدة لدور سورية في لبنان، فقد طلبنا من مورفي في 9 نيسان ألا يضغط علــى الأســد: «الشيء المهم هو اختيار الوقت الذي يكون فيه أكثــر تقبلاً لذلك». ولم تأت المناسبة فعلاً إلا فــي 9 آيــار، عندما طلب الأسد من مورفي، مُشيراً إلى تراجــع أولوية عملية السلام، أن يعرض النقاط التي ستبحث مع مساعده الشخصي الأول، أديب داودي. وقد التقى مورفي بالداودي في 15 أيار وكرر عرض رابين بأن إسرائيل مستعدة لإزالة عدة مستوطنات من الجولان في مقابل إنهاء حالة الحرب ـ وهو عرض سخي لا سابق له. وكانت التعليمات المُبلغة إلى مورفي تؤكد على الفكرة الأساسية التالية:

لقــد فوضنــا (الإسرائيليــون) الآن باستكشاف نهايــة لحالة الحرب بيــن إسرائيــل، ومصر وسورية والأردن... فــي الواقــع أن إنهاء حالة الحرب سيكون مرحلة انتقاليــة، تقل عن مرحلة السلام التي ستكون جــزءاً من تسويــة نهائية. لهذا، بالتعريف، «الخطوط التي ستنسحب إليهــا إسرائيل بموجب أية اتفاقيات «لإنهاء حالة الحرب» لن تمثل الحدود النهائية لإسرائيل.

لــم يستجب الأسد رسمياً نهائياً للاقتراح، ولكنه ألقى خطبتين يُحذر فيهما من محاولات شق العرب، التي لم تكن تعني شيئاً في الأجواء التي تولدت في لبنان.

فــي الشرق الأوسط المتوتر تشكل قراءة أوراق الشاي أحياناً مادة للتحليل. ونحن نعتبر سكوت الأسد رسميــاً كمؤشر على أنه يريد أن يترك خياراتــه مفتوحة. لم نكن نهتم اهتماماً بالغاً لأننا لم نكن نتوقع أن يوافــق على خطتنــا بصراحة، لاسيما عندما كان يحتاج إلى مساندة جميــع العرب على أعماله في لبنان. مــا كان الأســد ليفتح يديــه ما لم يعلم بدقة ما هي التعديــلات الحدودية التي ترغب فيهــا إسرائيل حقاً. وحتــى عندما يصــر الأسد في صلب خطاباته، فــإن عزلة سورية المتزايدة ســوف تقلص من قدرته على معارضــة المبــادرات الأمريكية. وإذا أخفقت المقاربة المشتركة، فسيكســب السادات مجالاً للمناورة في تحرك مصر بمفردها ـ وهي ما أعتقد أنها النتيجة المتوقعة.

كذلك كان الملك حسين غامضاً عندما طرح فورد مفهومنا عليه في 25 آذار. إذ كان الحسين مهتماً، كشــأن جميــع زملائه، بلبنان بالدرجة الأولى. أما بالنسبة إلى الضفــة الغربية فقد أخبر فورد أنه سيكون

مستعـداً لمشاركة إخوته العرب بشأن عرض معقول مـن جانب إسرائيل يتعلق بالأراضي، وسيطلب سلطة التفاوض علـى الرغم من قرار قمة الرباط. ولكنه لم يكن راغباً أكثر من الأسد في وضع نفسه في موضع لن ينفذ قبل سنة. ما أراد الحسين أن ننقله إلى الرئيس السوري كان غموضاً ملتبساً:

> فـي حين كان الملك حسين متحفظاً تجاه ما إذا كانت إسرائيل راغبة في تقديم تنازلات كافيـة بالنسبة للأراضـي، فإننا لم نتوصل إلى استنتاجات محـددة في مباحثاتنا معه.. كان انطباعنـا أن الملـك حسين يفضل أن نرجئ الحكم حتى نصـل إلى فرصة لمناقشة هذه الفكرة مع الرئيس الأسد ومعرفة رد فعله.

فـي 22 حزيران اجتمعت مع سفرائنا فـي دول عربية في السفارة الأمريكية في باريس لمراجعة وضع لبنـان والشرق الأوسط وعملية السلام فيـه. اجتمعنا في غرفة مغلقة لا يخترقها الصوت. ولم تشجع مثل هذه الغرفة على الثرثرة. ومع هذا فقد كان موضوع الاجتماع يتطلب ثلاث ساعات من الحديث على الأقل. كان المشاركـون روي أثرتون، والسكرتيـر المساعد، والسفراء هيرمان إيليتيـس (في مصر)، وريتشارد مورفي (في سورية)، وتوماس بيكرينغ (الأردن) ووليام بورتر (المملكة العربية السعودية) وتالكوت سيلي (الـذي عيـن مؤخراً في لبنان بدلاً من ميلوي). لم يكن يمثـل الولايات المتحدة فريق أفضل من هذا في الشـرق الأوسـط. وتتجلـى قدراتهم المهنيـة أن معظمهم عمل فـي إدارات متميزة من قبـل في عهد كلا حزبينا الكبيرين.

حذرت أنه يوجد في لبنان «خطر قد يقع أي واحد منا فريسته، ولكن إذا عملنا بطريقة سليمة نستطيع أن نقوم بدور مهم»، وأضفت بأنني تعبت من اتهام كل بلد عربي لي بأنني أتواطأ مع الدول الأخرى:

فالمصريـون يتهمونني بالتواطؤ مع سوريـة، والأردنيون يلومونني على إحباط سورية لأننا لم نشجعها على الغزو.

إجماع المجموعة أظهر أن هذه التهم تبين أن الحيلولة دون السيطرة على لبنان من قبل أي من القوى المتصارعة كان صحيحاً.

بعد ذلك راجعت أنا والسفراء عملية السلام العربي ـ الإسرائيلي. وشرحت لماذا كنت أفضل التركيز على التعامل مع الدول العربية في المرحلة الثانية دون إشراك «منظمة التحرير» (وكان سيلي بشكل خاص يحض على هذا، وأيده في ذلك السفراء الآخرون):

> مـا إن تدخـل (المنظمة) عملية السـلام فإنها ستجعـل مواقف الجميـع متطرفة، إنهم سيثيـرون جميع المسائـل التي لا يستطيع الإسرائيليون معالجتهـا، ولا يستطيع أي عربي أن يثيـر أية مسائـل أخرى أثارتها «المنظمـة». لذا أشعر أن المنظمـة لا يمكن أن تكون المسألـة الأولى، لا لأنني لا أحبذها بـل لهذا السبب. إذ إن مصر وسورية أكثر مرونة من

المنظمـة. أمـا بالنسبة إلى المنظمة فمـن الممكن أن تظهر ككيان فـي مرحلة ما، ربما بالاتحاد مع الأردن.

لذا فإنني لم أبكِ على المنظمة كثيراً لأنها قد ضعفت في نهاية شهر آذار. اعترف جميعنا أنه لا يمكن فعل شيء قبل انتخابات شهر تشرين الثاني. وفي غضون ذلك سلّمت السفراء رسائـل خاصة للسادات والأسد. وقد أبلغت إيليتس: قـل للسادات إن إمكانية التحول إلى سوريـة مستحيلة بشـكل مطلق. لقد وضعنا ثقلنا في مصر. جميـع أوهام فهمي سخيفة. ومـن ناحية أخرى نريد رأيه حول تجنب وضع يجعل الأسد يرتمي أمام العراق. هذا أكثر حسمـاً من أي شيء آخر نستطيع أن نفعله. إذا لم نلتفت إلى سورية، فسنشعر أننا نحتاج الأسد في مرحلة قادمة من أجل استراتيجيتنا المشتركة.

وكانت تعليمات مورفي تجاه التعامل مع الأسد مشابهة تماماً:

قل له إننا نحتاج سورية في مرحلة قادمة. وإذا سأل عن الفلسطينيين. فقل له إننا نحتاج إلى مساعدته للاستفادة منها في وجه من الوجوه. إذا كان لديه القدرة على جمع الفلسطينيين والأردنيين معاً نستطيع أن نحقق تقدماً. لبنان يعيق كل شيء. لا يهمني أن السادات يقول له إننا قلنا إن مصر هي المفتاح. قلنا للسادات إن سورية ينبغي أن يكون لها دور.

كانـت الغاية من الاقتراح أن نبيـن أن جوهر دبلوماسيتنا إعطاء صـورة مختلفة لكل جانب. في 7 آب جمعـت سفراءنـا في الشرق الأوسط (باستثنـاء مورفي الذي كان مجتمعاً بالأسـد) مرة أخرى. كنت في طهـران مـن أجل اجتماع اللجنـة الأمريكية ـ الإيرانيـة المشتركة وعلمت أن هناك بعض التململ بسبب موقفـي من «منظمـة التحرير». كنت أعـي أن معظم السفراء كانـوا يفضلون ضم «المنظمـة» إلى عملية السلام والشروع بالتفاوض معهم. لذلك التقيت على انفراد مع تالكوت سيلي، سفيرنا في لبنان والمدافع الأول عن استراتيجية منظمة التحرير في وزارة الخارجية، لأشرح له لماذا أنا غير موافق :

أنـا وأنت غير متفقيـن فلسفياً، وكنا نعلم ذلـك قبل أن تغادر. لقد طرحـت أفكارك ولم نوافـق عليها عدة مـرات، وفقاً للطريقة المعتادة في إدارة فورد، في وجهة نظري، إذا لم أكـن مخطئـاً ـ أن المنظمة يجـب أن تنتظر حتى نهاية العملية. مـا إن نعترف بالمنظمة حتـى نفقـد كل نفوذ عليهم ـــ سنفقد كل ما نستطيـع أن نقدمه لهم. مـن الممكن أيضاً أن يصبحـوا، بعد الاعتـراف، مفاوضين أكثر جدية، ولكنني أعتقـد أنه من المحتمل أن يصبحوا أكثر غروراً وعجرفة.

وكررت أمام السفراء مجتمعين الاستراتيجية التي اقترحت انتهاجها في عام 1977:

استراتيجيتنـا أن نجلـب «منظمة التحرير» نحو المفاوضات فـي النهاية، تاركين خطوة بينهم وبين سورية ومصر والأردن بحيث يمكن السيطرة عليهم. وبغير ذلك فإن المنظمة سـوف تعطّل المفاوضـات بالمطالبة بأكثر ممـا تستطيع الحكومات العربيـة أن تريد أو تقدم. ينالون موافقة السوفييت. وسيرفض الإسرائيليون طلبهم وتنهار المفاوضات. ليس لدينـا أوهام حـول الأسد، ولكننا نرغب فـي استمرار انفصال سورية عـن ليبيا والعراق والاتحاد السوفييتي. إذا سيطر الهلال المتطرف على لبنان، المؤلف من العراق وسورية، ومنظمة التحرير، وانضمت إليهم ليبيا ـ بعد الإطاحة بالأسد ـ فسيكون الأمر بالغ السوء بالنسبة إلى مصر.

وكررت أمام إيليتس الدور الحاسم لمصر بالنسبة إلى استراتيجيتنا :

كيسنجر : ينبغي أن ترى السادات على حدة ـ هل تستطيع أن تراه وحده ؟

إيليتس : نعم، ولا سيما أن فهمي سيكون بعيداً عندما أعود.

كيسنجـر : وتعطيـه تحليلي للموقف. كصديق قديم وموثوق، أريـده أن يعرف كيف أفكر، وأرغب في أن يعلمني أين الخطأ. وما تزال مصر الدولة الأساس في سياستنا ولكنني أريد تعليقاته على تحليلي.

في 11 آب التقى إيليتس مع السادات وحدهما لمراجعة استراتيجيتنا. أكد السادات على أن الوضع في الشرق الأوسط «فوضوي». وليس لديه الثقة في أن الأسد أو الحسين قادران على تنفيذ استراتيجية متفق عليها. ومع هذا فقد قال السادات إذا وضعت الولايات المتحدة خطة شاملة في عام 1977 تتضمن تحركاً علـى الجبهـات الثلاثة عام 1977 فثمة فرصـة أن يُخضع الزعماء العرب مصالحهـم في لبنان لإمكانات سلام شامل. قد تظل مشكلة لبنان غير محلولة. ولكن يمكن السيطرة عليها أكثر.

إذا ظـل الوضـع العربي غير مستقر في عام 1977، قال السادات إن لديه فكرة تجول في رأسه. طالما أننا لم ندخل في التفاصيل، فهذا يتطلب أن تضع إسرائيل جميع أوراقها على الطاولة «وتبدأ جولة جديدة من المفاوضات بين مصر وإسرائيل. ومثل هذه المفاوضات يجب أن تجري» بصراحة وانفتاح «بحيث إذا تم التوصل لى حل ما». تكون مصر على استعداد لأن تقول للعرب، سواء عبر مؤتمر قمة أو عبر أية طريقة أخرى، إن الدول العربية الأخرى تحتاج أيضاً إلى أن تواجه مسؤولياتها. وطلب مني السادات أن أفكر معه حـول ما يمكن عمله عـام 1977 لمنع الفلسطينيين، والسوريين، أو الحسين من إعاقة جهود سلام أخرى. ليـس لديهم استراتيجية، ولكن علينـا أن نفكر في المستقبل. علينا أن نهيء أنفسنا للجولة القادمة. وكرر مراراً أنه ينبغي أن تكون هناك حركة عام 1977.

لقـد حققنا ما رسمنا إمكانية إنجازه: لسـوف نبدأ بمحاولة لتحريك جميع الجبهات، وإذا أخفقنا في ذلك فسنحقق خطوة واسعة على صعيد المفاوضات المصرية ـ الإسرائيلية المنفردة. وإن كان بعيداً عن خيالي أن السادات يعني رحلة إلى القدس في قوله «وضع جميع الأوراق على الطاولة». كل ذلك لم يتوضح عندما غادرت المكتب، ولكن هذه المباحثات هيأت الأرضية لمرحلة تالية من عملية السلام.

بعد هذه اللقاءات خضعت سياسة الشرق الأوسط إلى فتور الهمة التي تسبق الانتخابات وبالنسبة إلى لبنان فإن مؤتمراً للقمة عقد في الرياض في الفترة ما بين 17 – 18 ت1 أوجد قوة ردع عربية مؤلفة أساساً مـن قـوات سورية وضعت نهايـة للقتال الجاري ولكن نهايـة حمام الدم لم تستطع إعـادة النظام القديم أكثـر مما فعل وقـف إطلاق النار بعد عشرين سنة تالية في البوسنة بحيث تكون الأعراق المختلفة حكومة مشتركة. لقد وصف الوضع السياسي في لبنان عام 1976 مفكر إسرائيلي متابع للأحداث كما يلي:

كانـت سلطة رئيس لبنان، وحكومتـه، وبرلمانه، والبيروقراطية المركزيـة مقتصرة على جزء صغير مـن بيـروت. إذ كانت مساحة لبنان مُقسمة في الواقع بين القوى الخارجيـة والبارونات المحليين. وكانت سوريـة تديـر مباشرة أجزاء كبيـرة من شرق وشمال لبنـان. أما المنطقة المسيحية شبـه المستقلة فقد ظهـرت في شمال بيروت. في عاصمتها جونيه، تشبه المنطقة التي يسيطر عليها الفلسطينيون وحلفاؤهم اللبنانيـون الموجودون جنـوب بيروت، وفي الجزء الجنوبي من لبنان المتاخـم للحدود مع اسرائيل. كان يتنافس الرائد سعد حداد والميليشيا الموالية لإسرائيل مع «المنظمة» والميليشيا اليسارية التابعة لها على السيطـرة. وفـي أقصى الشمال كان زعماء أسرة فرنجية والزعماء السُنـة وزعماء الميليشيات يحافظون على اقطاعاتهم[16].

مصيـر الأغلبية الكبيرة من الشعب اللبناني الذين لم تكن مشاركة في معارك ومناورات الميليشيات المختلفـة والقـوى الخارجية جعلنـي أتذكر قصة رواهـا لي يوليوس نيريـري، رئيس تانزانيـا. ففي أحد الاجتماعـات برر نيريري عدم ثقتـه بالموالين للغرب من أمثال لي كوان يو رئيس وزراء سنغافورة بالقول: «عندما تتعارك الفيلة ينسحق العشب» أجابني لي: «عندما تمارس الفيلة الحب ينسحق العشب أيضاً».

فـي ذلـك الحين كانـت استراتيجيـة عملية السلام هامـدة بشكل واضـح. فقد كان لدينـا تأكيد من السـادات أن مصر ستشارك فـي استراتيجيتنا، والأردن سيسير وحيداً إذا قدمـت إسرائيل عرضاً يتعلق بالأراضي للملك يستطيع أن يبرره لإخوانه العرب. أما الأسد فمن الواضح أنه سينتظر ماذا ستفعل الدول العربيـة الأخـرى وأي خط يمكن أن يقترحه الإسرائيليون للجـولان. كان هذا أبعد مما ذهب من قبل. ومع هـذا، فـإن الطريق من المفهـوم (أو الفكرة) إلى مفاوضات كاملة حتى على جبهـة واحدة سيكون مثيراً. وفكـرة التقدم على ثلاث جبهـات في وقت واضح كان كابوساً يجعلني أحلـم بنتيجة انتخابية تجعل تنفيذ سياستنا في أيدي الآخرين.

أقـرت ردارة كارتـر فكرتنا العامة بالتحرك قُدماً على جميع الجبهـات. ولكنها ينبغي ألا تقتصر على وقـف القتال بـل تصل إلى سلام نهائي شامل. السادات الذي فكر فـي «نهاية الحروب» كان مفهومه يمثل الحد الأقصى المطلق، إذ كان يعرف أن مثل هذه المقاربة تضمن جموداً مطولاً. والعودة إلى مؤتمر جنيف كما اقترحت إدارة كارتر أثارت لدى السادات شبح الفيتو السوري والسوفييتي ضد أعماله. لقد فقد حرك البديل الوحيد الذي أوضحه لايليس في آب 1976. وحده السادات من رجال الدولة في ذلك الوقت فهم أن عملية الشرق الأوسط كانت تتطلب عملاً فائقاً من السخاء، ساعدناه بطرح مقاربة جديدة. ولكن خطوته النهائيـة كانـت رحلته إلى القدس عام 1977 ـ التـي لم يعتقد أي مشارك أو مراقب، بمـن فيهم أنا، أنها ممكنـة. بهذا أعاد دبلوماسية المفاوضات الثنائية ولكن علـى مستوى ضمن لنا الاختراق الذي كنا نسعى إليه.

استعـداداً لـ «نهاية الحـرب» حضر مساعـداي هـال سانـدرز وروي أشرتون دراسـات واسعة حول الخيـارات المختلفـة المتعلقة بالأراضي وتعريفـات السلام التي كنت أعتقد أنهـا ذات شيء من الفائدة لخلفائنا بعد أن فتح السادات الباب من أجل الخطوة الأخيرة. طول عقدين أربع إدارات من كلا الحزبين قـد وقعت معاهـدات سلام وكانت عنـد كتابة هذه السطور منهمكـة في محاولة إنهـاء النزاع الجوهري بيـن إسرائيـل والفلسطينين. إنها مهمـة مُشرفة، واحدة من الأمثلة القليلة النـادرة للحزبين واستمراراً للمبادىء الأمريكية وأهداف السياسة الخارجية. أولئك الذين كان لهم من بيننا شرف تحقيق الخطوات الأولـى فـي إدارتي نيكسون وفورد، يستحقون بعض الفخر لأنهـم دفعوا بعض الأطراف في طريق مايزال السير فيه مستمراً.